

جيمس دروت

ترجمة صنع الله إبراهيم

العدو

تأليف
جيمس دروت

ترجمة
صنع الله إبراهيم



العدو

جيمس دروت

The Enemy

James Drought

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٥٨ ٧

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٤.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٩٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

قبل أن تقرأ

واكبَت سنواتُ مُراهَقتي نهايةَ العهد الملكي في مصر. كانت البلاد تَموج بدعوات التحرُّر الوطني من الوجود الإنجليزي العسكري، والتحرُّر الاجتماعي من سيطرة الإقطاع، ومن الأُمية والمرض والحَفاء! ... وشكَّلت هذه البيئة وجداني، وخاصةً الحديثَ عن أن المعرفة هي كالماء والهواء يجب أن تكون للجميع وبالمجَّان.

وفي مغربِ يومٍ من سنة ١٩٥١م، كنا أنا وأبي عائِدَين من زيارةٍ لأحد أقاربنا في شرق القاهرة. توقفنا في ميدان العتبة لنأخذ «الباص» إلى غربها حيث نقطن. اتخذنا أماكننا في مقاعد الدرجة الثانية. نعم! كانت مقاعد «الباص» آنذاك — والترام أيضًا — مُقسَّمة إلى درجتَين بثمنَين مُتفاوتَين للتذاكر التي يُوزِّعها «كمساري» برِداءٍ أصفر مميز أثناء مروره على الرُّكاب.

جلسنا أنا وأبي خلف الحاجز الزجاجي الذي يَفصل الدرجتَين، وتابَعتُ في حسدٍ رُكابَ الدرجة الأولى، بينما كان أبي غارقًا في أفكاره التي تُثيرها دائمًا أمثال هذه الزيارات.

قلتُ بحماسٍ طفولي: «سيأتي اليوم الذي يزول فيه هذا الحاجز، بل ويصبح الركوب بالمجَّان.»

تَذكرتُ الروايات التي أعشق قراءتَها فأضفتُ: «والكتب أيضًا!»

تَطلَّع إليَّ باستياءٍ من سذاجتي: نعَم! الكتب بالمجَّان؟ يا لها من سذاجة!

ولم أتصوَّر وقتَها أن يأتي اليومُ الذي تُصبح فيه كتبي أنا متاحةً للقراءة بالمجَّان! وذلك بفضلِ مُبادَرةٍ جريئة من مؤسسةٍ مصريةٍ طَموحة، فشكرًا لها!

صنع الله إبراهيم

مقدمة

بقلم صنع الله إبراهيم

١

في مقالٍ عن الرواية الأمريكية في الخمسينيات، قال الناقد الأمريكي الكبير مالكولم كولي إن الكُتَّاب قد انصرفوا عن تناول العلاقات الاجتماعية الهامة للإنسان. فقد كرَّسوا أنفسهم «للدراما في القارب»، بعيدًا عن البحر الكبير، وأصبح موضوعهم هو مجاهل العواطف الدقيقة في اللحظة الإنسانية، ومفتاحهم هو الحب والعاطفة.

وقد واكبت هذه الظاهرة انتكاسَ النضال الاجتماعي الذي كان قد بلغ أوجَه في الثلاثينيات. فقد تحول النضال من أجلِ حرية التعبير اجتماعيًّا، بعد الحرب العالمية الثانية، إلى نضال من أجلِ حرية التعبير جنسيًّا وعاطفيًّا. وكتب تنيسي ويليامز — أحد الثلاثة الكبار في الخمسينيات، في أمريكا، هو وكارسون ماكيلرز وبول باولز — روايتَه الأولى «ربيع مسز ستون»، وفيها يكون الجنس هو الملجأ الوحيد لممثلةٍ تَقدَّم بها السن، وتحاول أن توقِف جريان أيامِها بلا هدف. وفي مسرحيته Camins Real يبدو العالم كابوسًا مُرعبًا، لحظةُ النصر الوحيدة فيه هي لحظةُ الحب.

وتحوَّل الحب إلى رؤيا متكاملة، وتجربة صوفية، عند كاتبٍ شابٍّ موهوب هو جيروم سالينجر في Catcher in the Rye و«تيدي» الفيلسوف الصغير الذي يعلن في عام ١٩٥٣م: «من الصعب في أمريكا التفكيرُ والحياة حياة روحية، وإذا حاولت ذلك نظر إليك الناس نظرتَهم إلى مسخ.» ثم في «ارفعوا السقوفَ عاليًا أيها النجَّارون» (١٩٥٥م)، حيث يقول: «ما هو الجحيم؟ إنه معاناة العجز عن الحب.»

وجرت عمليةُ انسحابٍ كاملة عبَّر عنها بوضوح الكابتن يوسريان بطلُ رواية جوزيف هيلر الأولى Catch 22 بقوله: «لا تُحدثني عن الكفاح من أجل إنقاذ بلادي؛ لقد كافحت طويلًا من أجلِها. والآن سوف أُكافح قليلًا لإنقاذ نفسي. إن بلادي لم تَعُد في خطر، ولكني أنا في خطر ... من الآن فصاعدًا، لن أفكِّر إلا في نفسي.» وينتهي به المطاف بالهجرة إلى السويد.

كما عبَّر البطلُ المجهول في روايةِ رالف إليسون الأولى «الرجل الخفي» ١٩٥٢م: «إن حفرتي دافئةٌ وتفيض بالضوء. لقد قطعتُ سلكًا كهربائيًّا يؤدي إلى المبنى ومددتُه إلى حفرتي. وهكذا أعزف الموسيقى الخفية لعزلتي.»

والرجل الخفي هو الزنجي الذي يبحث عن شخصيته بعد أن أصبح شريكًا للرجل الأبيض في اضطهاد إخوته. وهو يواجه الاختيار بين هذا المصير وبين النضال الثوري ضد البِيض، بين الخضوع والتمرُّد، ولكنه يختار طريقًا ثالثًا هو الإبداع الفني.

ولم تكَد الخمسينيات تنتهي حتى اكتملت ملامحُ بطلٍ جديد للرواية الأمريكية هو «المتمرد–الضحية».

إنه غريب، فوضوي ومهرِّج ... مزيج من فاوست والمسيح، من العدمية وتأكيد الذات إلى حدِّ الجنون، من الاستشهاد والهزيمة. ونجده واضحًا في أبطال كتَّاب الستينيات: سول بيلو في رواية «هندرسون ملك الأمطار» ١٩٥٩م، وسالينجر، وترومان كابوت وجيمس بردي الذي سَجَّل انهيار الحلم الأمريكي في رواية «ابن الأخ» ١٩٦٠م، التي تدور كلُّها حول جمْع معلومات عن ابن الأخ الذي مات في كوريا ... كما في رواية كارسون ماكيلرز الشهيرة «أنشودة المقهى الحزين»، وآخر روايات سول بيلو التي صدرت عام ١٩٦١م بعنوان «هيرزوج».

وسول بيلو الذي وُلد عام ١٩١٠م، هو الذي قال عنه الكاتب الأمريكي نورمان بودهوريتز: «إن مصير مرحلةٍ كاملة من الثقافة الأمريكية سيتوقَّف على ما إذا كان سول بيلو سيصبح روائيًّا عظيمًا أم لا.»

ولعل سول بيلو قد برَّر هذا التقدير برواية هيرزوج العظيمة التي توَّجت إنتاجًا بدأ في ١٩٤٧م بروايةٍ قصيرة اسمها The Dan–Man gling؛ ففي الأستاذ الجامعي موسى هيرزوج امسك بيلو باللحظة التي يعيشها المجتمع الأمريكي الآن، لحظة الأزمة، بالعناصر الرئيسية في شعوره، والخيوط الأساسية لوضع المثقَّف بالذات الذي يمثل تعايشًا بين الحرية الفردية والفوضوية أو العزلة وبين نظام اقتصادي واجتماعي وحشي.

وتبدأ الرواية هكذا: «إذا كنتُ قد فقدتُ عقلي، فلن يضيرني هذا في شيء، هكذا فكَّر موسى هيرزوج»، وقد بدأت أزمته الطاحنة التي كادت تودي بعقله، وجعلته يتساءل: «أجاءت اللحظة الدَّنسة التي يموت فيها الشعور الأخلاقي، ويتحلَّل الضمير، ويتردَّى احترام الحرية والقانون والديانة، كلُّ ما تبقَّى، في الجبن والتحلُّل والدماء؟»

وتنتهي أزْمة البروفيسور هيرزوج به إلى أن يُكرِّس نفسَه للعمل والشمس، وأساسًا للمشاركة مع الكائنات الإنسانية الأخرى.

وتُشبه أزْمة هيرزوج أزْمة أستاذٍ جامعي آخرَ هو ستيفن روجاك بطل رواية نورمان مالر الأخيرة «حلم أمريكي» الصادرة في ١٩٦٤م وإن اختلف طريقهما. فبطل مالر، الذي تشبِه حياته العاصفة حياةَ مالر الشخصية في جوانبَ عديدة، يُغرِق أزمتَه في القتل والجنس والمخدِّرات بينما ينهار الحُلم الأمريكي من حوله.

ويكاد يكون تطوُّر مالر صورةً دقيقة لتطوُّر الأدب الأمريكي نفسه منذ الحرب. فقد بدأ هذا الكاتب الموهوب واقعيًّا اشتراكيًّا بروايته الهائلة «العرايا والموتى» ١٩٤٨م، التي ربما كانت أعظمَ ما كُتب عن الحرب العالمية الثانية، وإن كانت تعالِج على نفس المستوى الحربَ الطبقية في داخل أمريكا ... ثم تجاذبته بعد ذلك الأمواج التي تجاذبت المجتمعَ الأمريكي كلَّه. وبينما كان هيرن وفالسن في «العرايا والموتى» يريدان تغييرَ النظامِّ كلِّه، نجد سام في روايته التالية «الرجل الذي درس اليوجا» لا يرمي إلا إلى تغيير نفسِه وحسب. ثم إذا به يعجز حتى عن هذا في رواية «حديقة الغزال»؛ فرغم أن بطلها يرفض الشهادةَ أمام لجنة تحقيق في الكونجريس، لا لأسبابٍ سياسية وإنما بدافعٍ من الكرامة، ويعطيه هذا الموقف فرصةً جديدة، يزوده بالقوة ليحقق أملًا قديمًا خُيل إليه ذات مرة أنه قادر على تحقيقه ... إلا أنه بعد سنواتٍ من انتهاء موهبته في عالم المساخر (هوليود)، لم يَعُد قادرًا على شيء بالرغم من موقفه الأخير ذاك.

وقبْل نورمان مالر اكتشف بول باولز في الخمسينيات طريقَ العنف؛ ففي نهاية روايته Let it Comedown يقوم البطل الذي لا وجهَ له ولا وجهة، في غضبٍ مفاجئ عاصف ضد حياته كلها، بارتكاب جريمةٍ بلا سبب أو رغبة، وفي هذه اللحظة المرعبة (التي تُشبه لحظة اشتراك بلدٍ ما في حرب) يجد أخيرًا مكانًا له في العالم، وضعًا محدَّدًا، علاقة محدَّدة ببقية الناس. وإذا كانت علاقة عِداء صريح، فإنها علاقته هو، وهو خالقها.»

٢

وهكذا نرى الإنسانَ يحقق علاقته بالآخرين، بعد انتكاسِ مسعاه الاجتماعي، من خلال الحب أو اليأس أو العنف ... ولكن ما زال هناك سبيل رابع.

ففي مواجهة مجتمعٍ مجنون يرسف في قيود المال والتنظيم والحرب الباردة والحرب المحلية والفظائع العنصرية، وبعد انتكاس الآمال الثورية ... يمكن أن يصبح الهرب شيئًا غير الانسحاب ... ويصبح عبارةً عن الحركة والاستمرار في الحركة «على الطريق»، وهو عنوان رواية جاك كيروك التي أعلنته في عام ١٩٥٥م نبيًّا للجيل الغاضب كما صار هيمنجواي من قبلُ نبيًّا للجيل الضائع برواية «ستُشرق الشمس ثانيةً». «على الطريق» هي ملحمةُ هذا الجيل، وتصوِّر مجموعة من الشبان والفتيات يجوبون أنحاء أمريكا في بحثٍ مجنون بائس عن الحقيقة والإثارة. «موتيل ... موتيل. موتيل ... زخارف النيون المحطَّمة ... الوحدة تئنُّ في أنحاء القارة كأنها أبواقُ تحذير السفن من الضباب المنتشر فوق مياهٍ ساكنة يغطيها الزيت في أنهارٍ تتجاذبها حركة المد والجزر.» وتنطلق المجموعة من مدينة إلى أخرى في سرعة ... يبتاعون السيارات ويحطمونها، وأحيانًا يسرقونها ثم يتركونها إلى غيرها، وأحيانًا أخرى ينطلقون على أقدامهم «هيتشهيكنج»، يستوقفون السيارات المارةَ لتحملهم معها حيث تذهب. وعندما يَصِلون إلى آخرِ مكانهم يقيمون حفلًا صاخبًا تعزف فيه موسيقى ساخنة، ولكنهم لا يبقون في مكانٍ واحد طويلًا؛ فهم دائمًا On the move في بحثهم الجائع عن تجربة جديدة في الشراب أو المخدرات أو الجنس أو الخطر أو ... الشِّعر.

لقد وُلد بطلٌ جديد، هو على حد تعبير آرثر ميلر «واحد من جيوش الفتيان والفتيات الضالين الباحثين عن قليلٍ من الحنان، وعن الأمل في الحياة، وعن رمزٍ ما، يؤمنون به، ويساعدهم على استفادة أرواحهم المحطَّمة.»

وُلد تكنيك جديد في الكتابة عبَّر عنه زعيمٌ آخر من زعماء الجيل الغاضب هو ويليام بروجز في رواية «الغذاء العادي» بقوله: «هناك شيء واحد يمكن للكاتب أن يكتب عنه ... ما هو أمام حواسه لحظةَ الكتابة ... إلا أداة تسجيل ... ولست أعبأ بالحكاية أو الحبكة أو الاستمرارية.» وهي عمليةٌ حوَّلها كيرواك إلى مانفستو للكتابة التلقائية سَجَّله في مقدمة كتابه «المسافر الوحيد»: «لا وقتَ للتفكير في الكلمة المناسبة، وإنما هناك التراكم الطفولي لكلماتٍ بلا منطقٍ حتى يتحقق الإشباع ... لا إعادة أو مراجعة ... وإذا أمكن فلنكتب بلا

وعي …» وهنا فقط يستطيع الكاتب أن يسمع صوتَ نفْسه حقًّا، ويتعرف الرفيق على رفيقه في الطريق الفسيح.

ولكن أحد كُتَّاب هذا الجيل الغاضب — البيتنكس Beatniks — وهو الصحفي لورنس ليبتون، تساءل في عام ١٩٥٩م: «أليس من الأفضل الانضمامُ إلى حزبٍ ما أو توقيع احتجاج ضد تجارب السلاح النووي؟» وكانت الإجابة التي تلقَّاها من البيتنيكيين الآخرين هي: «هناك متقًى واحد من الخراب العام، وهو الإبداع … وحتى عندما تسقط القنبلة الذرية سنُنْظم الأشعار ونرسم اللوحات ونكتب الموسيقى.» وهو نفس ما انتهى إليه من قبلُ بطل رالف إليسون المجهول الذي يمر بمراحلَ معينة ويخرج منها إنسانًا جديدًا يفوز بحريَّته وقد وُلد من جديد مزوَّدًا بالقدرة الإلهية على الخلق … أي الفن.

ولكن السؤال أصبح قائمًا … ولم تمضِ سنتان حتى اعترف جاك كيرواك أبو الغاضبين: «أمَّا نحن فننكمش على أنفسنا بحثًا عن الملاذ والنجاة، بينما تهزُّ الانفجارات الرهيبة عالَم البالغين.»

إن البطل الذي كان يرفض قبولَ الواقع بجوانبه المضيئة والمظلمة على السواء ويهرُب منه ويتحداه بسلوكه، قد بدأ يحس بالمسئولية الشخصية عن كلِّ ما يحدث في أمريكا. وتراجع الاضطراب عمومًا إلى المرتبة الثانية؛ إذ حلَّت مكانه محاولات تذليل موقف التعالي على العالَم، وإيجاد مكان فيه.

وسرعان ما كتب كيرواك رواية جديدة بعنوان «بيج سور»، لم يَعُد يُمجِّد فيها الاعتراض والاحتجاج الفرديين والحرية المطلقة … فلأول مرة يتحدَّث عن واجبات الإنسان أمام غيره من الناس وعن واجبه الاجتماعي. وإذا كان ما يزال يردِّد «الحياة بديعة إلى حدِّ الكمال»، ويجب الاستمتاع بكل لحظة من لحظاتها بالتسكُّع في جبال الكون ووديانه الغارقة في شمس الخريف، فإن هذه الدعوة التي تُذكِّرنا بجان جاك روسو، لم تَعُد الموضوع الأساسي، بل هي مجرد صدًى للمواقف السابقة، سنلمسه فيما بعدُ أيضًا لدى البطل «جيمس دروت» الجديد.

وبدا الانعطاف واضحًا في إنتاج الجيل الجديد من أُدباء الغضب، الذين بدءوا الكتابة في أوائل هذا العَقد. ففي ١٩٥٩م نشر فيليب روث، وهو لم يزل في السادسة والعشرين مجموعةً قصصية بعنوان «وداعًا يا كولومب» تضم رواية قصيرة بهذا الاسم، وفيها يفكِّر بطلها الشاب لأول مرة فيما يحيط به ويتساءل كيف يعيش.

وبعد ذلك بثلاث سنوات نشر تشارلس ويب رواية «الخريجين»، وتُمثِّل تمرُّد الأمريكي، الذي يلِج معترَك الحياة لأول مرة، على الواقع المحيط به، وبطلُه بريدوك يهرُب إلى ألاسكا

في الثامنة عشرة «حيث لا زيف بل بوهيمية حقيقية»، وهو يطلب لنفسه الحرية المطلَقة ويرفض الاعتراف بأية التزامات من جانبه نحو العالم. ولكنه لم يَعُد يشبه في شيء أولئك الفتية الضالين، ولم تَعُد تستهويه «السرعة الجنوبية أو هوس الجنس».

ويعود بطل رواية كوتلند براين الأولى «ويلكينسون»، التي نالت جائزة هاربر لعام ١٩٦٥م، من حرب كوريا ليبحث عن عملٍ في وكالة المخابرات الأمريكية، ولكنه ما يلبث أن يضطر إلى تحديد «مسئوليته» بالنسبة لكثير من المشكلات الخاصة والعامة.

وعندما عاد فيليب روت يقدِّم رواية جديدة بعنوان Letting Go بدأها بكلمةٍ لتوماس مان: «إن الواقعية هي دائمًا جِديةٌ لحد الأمانة، والأساس الأخلاقي المتفائل مع الحياة في وحدة واحدة، هو الذي يحتِّم علينا أن نبقى أوفياء لواقعنا؛ واقع الشباب النظيف.» ويرفض أبطال هذه الرواية السيرَ على نهج «الآباء»، ويبحثون عن طريق خاص بهم — في الحب والإبداع والدِّين، وأخيرًا في الاحتجاج — ولكن هذا الطريق يؤدي دائمًا إلى إخفاق جديد، وإلى البحث بلا أملٍ عن خلاص من «الواقع».

٣

ووسط هذه المجموعة من الكُتَّاب الشبان التي ظهرت في الستينيات في الولايات المتحدة، والتي تمثل منحنًى جديدًا لأدب الغضب، يبرُز جيمس دروت، طائرًا متميزًا، وصوتًا فريدًا يتميز بنقاءٍ غير عادي.

ففي أسلوبٍ بالغ الصفاء، ورمزية رقيقة، يُصوِّب دروت جهدَه إلى ما يحدث من حوله ... إنه لا ينظر إلى داخله إلا بالقدْر الذي تتطلبه مواجهة الأمواج التي تتلاطم من حوله.

وفي قوة وجمال، وفي الشكل الذي ارتاده من قبلُ سالينجر وكارسون ماكيلز وترومان كابوت، وهو الرواية القصيرة «العصبية» المحكَمة، تتابعت صرخات الغاضب الشاب حتى بلغت — في أربع سنوات — سبعًا أصبح بعدها بلا جدالٍ معبودَ الغاضبين ونبيَّهم الجديد.

ولعل أصدق وصفٍ لتكنيك دروت هو ذلك الذي جاء على لسان روبي روي في رواية «العدُو»، وهو يصف مبانيَ لويس سوليفان المعماري العظيم في أوائل القرن: «وجدت أن سوليفان لم يكن غامضًا أو موحيًا؛ فقد كان يعرف ما يريد، وفَعَله، ولم يكن في حاجةٍ إلى مترجِم ليفسر أعماله؛ لأن كلَّ ما كانه وآمن به، وأكثر من ذلك، كان يبدو في عمله، لم يكن هناك سِرٌّ، ولم يكن الأمر شاقًّا، ولم تكن هناك أقنعة ماهرة تحيط ببيان مبتذل — كما

كنت أتوقع — بل إن جبروت ما قاله سوليفان في جلاءٍ هو ما جعل رجال السلطة والذوق في عصره ينصرفون عن عمله.»

فهذا هو الطابَع المميز لأدب جيمس دروت. ونجد أبطاله في البداية يستكشفون ما يحدث حولهم، وما حدث من قبل؛ ففي «أمريكا في الخمسينيات» (١٩٦٢م) كان «دونر» نموذجًا للشاب الأمريكي القوي؛ فهو بطلٌ من أبطال كرة القدم، يضحك طول الوقت، ولكنها ضحكة مريضة بسبب نَدبة في ركنِ فمه، ويسيطر الجنس على ذهنه. وهناك راوية يتحدث عنه، وكان زميلًا له في المدرسة العليا بريفر سيد، بولاية إيلينوي، ولاحظوا المكان لأنه الذي تجيء به معظم روايات دروت.

يقول الراوية: «في الخمسينيات ... كان كلُّ الرجال الأقوياء الممتازين مثل دونر يختبئون في كهفٍ ما، سواء كان عنوانه الله أمِ المرأة، ولم يكن هناك ما يمكن لشخصٍ مثلي أن يفعله بهذا الشأن سوى أن يرقب أبطاله يتهاوون ويكرههم لهذا.»

ثم يعلِّق على انهيار دونر بقوله: «وعلى كلٍّ، فإن البلاد كلها كانت تنطلق في دربٍ أعمى في الخمسينيات، وبدا لي أن مشكلات دونر ... تتفق تمامًا والعصر. فقد كان السناتور مكارثي سيد الميدان، يجرُّ الناس أمام لجنة التحقيق التي شكَّلها ويتهمهم بالخيانة.»

ثم يشرح موقف البسطاء من الناس من أمثال الراوية: «أما أمثالي من الناس ... فلم تكن لديهم أدنى فكرةٍ عما يجدُر بهم عمله؛ لقد فوجئنا في البداية، وتساءلنا عما حدث لأبطالنا المعبودين، وعندما رأينا كم كانوا مرعوبين كرهناهم لذلك. ولكننا لم نفعل شيئًا على الإطلاق، وكانت البلاد كلها — وليس فقط فريق الكرة في كلية كنوكس — تتمزق وتنهار.»

وكانت الرواية التالية قصيرةً أيضًا واسمها «جسد ميت في برتونفيل»، وتدور أحداثها في بلدة صغيرة، على مقربة من شيكاغو. (لقد أصبح دروت أفضلَ الكُتَّاب منذ شيروود أندرسون في تصوير حياة المدن الأمريكية الصغيرة.) ولا تزال الرواية هنا متفرِّجًا ... يحكي لنا كيف يعجز سكان المدينة عن تنظيمها وإتاحة المجال للجمال فيها، وكيف يتآمرون على «الحقيقة» كي لا يهتز إيمانهم بأنفسهم ... رغم أن هذه البلدة بالذات خرج منها إبراهام لنكولن ذات يوم.

«وجدت شيئًا واحدًا في اجتماعِ لجنة التخطيط، فلم يَعُد الناس يفكرون في العمل معًا كما كانوا يفعلون من قبل ... وبشعور غامض بالهزيمة، لا يفكِّرون الآن إلا في أنفسهم.» ولم يَعُد يعنيهم شأن الجمال أو التناسق. ولا عجب «أن الأطفال في فصل الفنون في المدرسة

كانوا يضحكون من مُدرِّسهم عندما يحدِّثهم عن الجَمال والتعبير والتناسب، بينما كانت نفس الفرقة التي يتحدث فيها المدرِّس تصرخ بالقبح من كل ركن.»

المكان الوحيد الجميل في برتونفيل هو قصرٌ صمَّمه المعماري الشهير سوليفان في عام ١٩٠٠م وابتاعه أحد أغنياء البلدة وانتوى هدمَه ليقيم مكانه تمثالًا لنفسه (وموضوع العمارة سيعود إليه دروت باستفاضة في «العدو»).

ويدور الحوار التالي بين الراوية وصاحب الجريدة:

الراوية: يبدو لي … أن برتونفيل قد فقدت مستقبلها … أو ربما هي بلدة بلا هدف … إني أفكِّر فيها كما لو أنها تنهار أو شيء من هذا القبيل.

أد: يا بني، ماذا هناك من هدف لأية بلدة أكثر من أن تمدَّ مواطنيها بالطعام والأمان؟

ثم يقع الحادث … شاب بسيط عادي، لم يكن أحد يشعر به أو يعرف عنه شيئًا، ينتحر فجأة بلا سبب مفهوم، ولكنه يترك خلفه ورقة تقول:

> «إلى أهالي برتونفيل، إنني أعرف أنكم لستم أصدقائي، ولم تكونوا كذلك أبدًا رغم كل محاولاتي. ولأنكم قد رفضتموني فقد فشِلت بذلك في المهمة التي أُرسلت من أجلها إلى كوكبكم؛ ولهذا فأنا عائد من حيث جئت؛ فلست أستطيع الإقامة هنا أكثر من ذلك. إنني لجد آسف. وداعًا.»

إن رواية دروت الذي ظل حتى الآن يتفرَّج على ما يحدث حوله ويستكشف أسباب الواقع المحيط به وسبب انهيار أبطاله، قد بدأ ينطلق إلى العمل بنفسه؛ ففي «الفراشات الغجرية» (١٩٦٤م) يصبح الراوية أحد ثلاثة أبطال في الرواية يواجهون الموتَ عن عمدٍ بممارسة لعبة القفز بالمظلات من الطائرات، «فكل شخص يجب أن يلتقي بالموت». وبالقرب من نهاية الرواية يصبح الراوية هو الصوت الرئيسي … لقد اكتشف شيئين محدَّدين: «ليس هناك شرف أو مجد في الموت» … «وأدركت الأمر، أجل، هذا هو السبب في أنني أقفز؛ لأنه من الممكن تجنُّب الحياة بمواجهة الموت. إنني أخشى الحياةَ أكثر مما أخشى الموت؛ لهذا أقفز … الموت ليس امتحان الرجل … حياته هي الامتحان الوحيد الذي سيواجهه» … «عندما تقفز فإنك وحيدٌ». ثم يهتف في النهاية: «لا أريد أن أتجنَّب الحياة بعد الآن.» وتتركه الرواية في الطريق إلى محطة القطار مع فتاته.

ولكن الراوية يكشف شيئًا آخر … مسئوليته … «لقد راقبت الأمر كلَّه يحدث. كنت الوحيد الذي لم يقل شيئًا … ليس بوسعي بعدُ أن أقول إن الأمر لم يكن يعذبني.»

وهكذا انفصل بطل دروت تمامًا عن طريق البيتنيكيين الأوائل ... الذين شبَّههم في هذه الرواية بفَراشات تدور حول المصباح الكهربائي حتى تحترق بضوئه الصناعي. وسرعان ما امتزج الراوية بالبطل بالكاتب نفسه في آخرِ روايات دروت وأقواها على الإطلاق ... «العدو».

فروبي روي أوريلي، يبدأ حكايته المأساوية بهذه العبارة ذات الدلالة: «أدركت منذ طفولتي المبكرة قُبحَ كلِّ ما يحيط بي من صنْع الإنسان.» وسرعان ما يستبعد — في رحلة البحث عن العلة التي يقوم بها — أبويه والمدرسة والدِّين ... بل وكل ممثلي العصر البارزين الذين حاولوا الإجابة من قبل — هيمنجواي وفيتزجرالد وإليوت وأونيل وبروست — ويرفض أن يردِّد كل ما يُلقَّن له قبل أن يمحِّصه جيدًا، ويبحث عن الإجابة في الكتب وفي داخل نفسه ... ويجدها بعد أن يكون قد استقر في موقف المعارضة ... والإجابة هي البناء، الفعل.

ويصبح موضوع العمارة الذي طرقه دروت من قبلُ في رفقٍ هو الموضوع الأساسي لهذه الرواية. والواقع أن «المنزل» عند دروت أصبح رمزًا للمؤسسة البشرية، للوجود الإنساني، وأصبحت العمارة رمزًا للمشاركة الإيجابية. إن المنازل جميعها مشوَّهة؛ شُيِّدت بصورة خاطئة، فلماذا لا تُشيَّد بصورةٍ جميلة تجعل الحياة بهيجة؟ ... خلفَ كلِّ شكل قبيح فكرةٌ ملتوية أو أكذوبة ... وخلفَ كلِّ بناء مجنون عقلٌ مجنون ... والمدينة أصبحت آلةً لِسَجن الإنسانية في الإنسان وهي تغذي فيه كلَّ ما هو شرير وحيواني ... «أغلب ما هو قائم يجب هدمُه وإحلال غيره مكانه». هذه هي الرسالة التي اختارها روبي روي أوريلي وقد اتخذ البناء مهنة له.

وقوة «العدو» تكمُن في أنها يمكن أن تُقرأ على عدة مستويات ... فهي للوهلة الأولى قصة شاب موهوب في فن العمارة، يبتكر تكنيكًا جديدًا في العمارة يقوم على الحركة، ثم يلاقي الفشل بسبب عدم تقبُّل الجماهير لفكرته الجديدة. وفي خلفية هذه الحكاية نقرأ القصة الممتعة لعملاقي العمارة في أمريكا: راتب وسوليفان.

وهي للوهلة الثانية دراسة دقيقة لعملية الإبداع الفني في أي مجال ولموقف الفنان من إبداعه؛ فأوريلي عندما يتحدَّث عن مَولد أحد تصميماته لن يختلف عن دروت لو تحدَّث عن مولد رواية له وما يواكبها من حيرة وتمزُّق وعدم ثقة. بل إن الصورة التي أخذتها معاناة أوريلي: «إنني أُسرع دائمًا خوفًا من أن تتضح خطاي»، تذكِّرنا بجورج سيمنون الذي يغلق الباب على نفسه أسبوعين كاملين يعمل فيهما بصورةٍ متصلة حتى ينتهي من

إحدى رواياته، وهي دائمًا في هذا الشكل القصير العصبي الذي يستخدمه دروت ... ويضع أوريلي مواصفات الفنان الحق كما يراه: لا بد وأن يخلق عربتَه الخاصة إذا كان يريد أن ينطلق بحرية في المستقبل الذي يحلُم به. ويقدِّم علاجًا لمشكلات الفنان في مجتمعٍ كالمجتمع الأمريكي: لا بد وأن يتحكَّم في عمله بداءةً وخلقًا وتمويلًا؛ بل وفي السوق أيضًا كي يصبح حرًّا وينجو من التأثيرات المختلفة. وهناك المصير التقليدي الذي يواجهه الفنان «العبقري» في كل عصر ... الرفض ثم القبول فيما بعدُ ... وذلك أن الشكل الذي يبتدعه هذا الفنان ينحِّي كلَّ الأشكال الأخرى جانبًا، ويتساءل الناس: لماذا كانوا قانعين من قبلُ بما هو أقلُّ من هذا؟ ويدفعهم الخوف والرعب إلى إنكار الفنان الجديد وعمله.

بل يكاد دروت يقدِّم على لسان أوريلي مانفستو كاملًا لتيارٍ قائم بالفعل منذ سنوات في ميدان الفن التشكيلي ويقوم على الحركة. وهو التيار الذي امتزج منذ عامين بالتأثيرات الضوئية في تيارٍ جديدٍ يسمَّى بالكينتك. «أنكِر نفسك، اركَن إلى السكون والهدوء لتشعر بالحركة العظمى» ... هذا هو شعار التيار الجديد ... فالحركة أكثرُ طوعًا للتشكيل الجمالي بسبب بُعدها الجديد ... أي شيء مهما كان قبيحًا لا بد وأن يكتسب جمالًا عندما يتحرك، ويُكرَّر وفقًا لنظام معيَّن. (والحركة هي شعار الغاضبين الأساسي عند كيرواك.)

وعندما نتجاوز هذين البُعدين إلى بُعدٍ ثالث، نجد أنفسنا أمام تحليلٍ لمأساة المجتمع الأمريكي المعاصر الذي يصفه البطل بأنه مجتمعٌ من الدرجة الثالثة ذو حضارة منهارة ... مجتمع رأسمالي بالتحديد ... «... كانت بلادي تزداد قُبحًا على قُبح وهي تنتقل من أيدي مستغِل إلى آخر»، «هذا التحوُّل العنيف المَرضي نحو الوحشية والقُبح ... وتُساق جموع الشباب عاجزة دون أملٍ في الثورة ... شعب بأكمله ينهار ... بواسطة نظامٍ فاسد لا يعبأ بغير المال ويستغل الجميعَ لصالحِ قلَّة كانت تمنح الجماهير حَفنة من المِنَح مثلما تعطي للنادل بحكم العادة. كان النظام يدافع عن نفسه مستشهِدًا بكفاءته في مبادلة موادَّ لا قيمة لها بموادَّ أخرى عديمةِ القيمة ... كأنما هو أخطبوط مجنون، يحث الناس، عن طريق الإعلان المستمر، أن يبيعوا وقتهم ... مقابل شيء لا يحتاجون إليه ... ثم يجعلهم يوقِّعون على كمبيالةٍ تجبرهم على العمل لمدة من الأعوام يُنتِجون فيها منتجات أخرى غير مُجدية، تُباع بدورها بالنسبة لآخرين مثلهم. وعندما تقتفي أثرَ المال من جيبٍ لآخر تجده يصبُّ في النهاية في أيدي قلةٍ من المولين. وفي هذه الأثناء تبتاع الحكومة القذائف والقنابل والبنادق التي لا تمرُّ سنوات قلائل حتى تعلن عدم صلاحيتها ثم تُستبدل بالمزيد منها ... وعندما واجه النظام المتاعبَ ولم يجِد عملًا لبعض أولئك الذين ارتهنوا جانبًا كبيرًا من حياتهم

لديه مقابل منتجاته العديمة القيمة، عندئذٍ تحوَّل الرجال الذين يقفون خلفه إلى الحكومة يولولون؛ فضاعفت مشترياتها من المواد الحربية، وغرقت في المزيدِ من الديون، ثم زادت الضرائب العامة لتجدَ ما تسدِّد به الديون التي قدَّمتها البنوك، التي يملكها نفس الباكين الذين يملكون بالمثل النظام ويديرون، وهكذا يدور المال في نفس الحلْقة، وغرِق الناس في مزيد من الديون، وازدادت قلةٌ منهم ثراءً على ثراء وقوةً على قوة ... وخلقت الصحف فزعًا من الحرب حتى لا يعترض الجمهور على تخصيص الدخول المستقبَلة للاتفاق على أسلحةٍ ستُبلى من قبلِ أن يُسدَّد ثمنها بوقت طويل.»

هذا جانب من مأساةِ أمريكا، أما الجانب الآخر فهو موقف أهلها ... «العبيد» كما يسميهم أوريلي أو «الخنازير» كما تلقِّبهم فتاته، يقول أوريلي في نهاية حكايته: «في بلادي، خلال القرن العشرين، فإن المأساة هي العمل الذي يعجز الرجال العظماء عن إنجازه» ... «... كان جهدي الأول موجهًا إلى الحياة العائلية. فقد حاولت أن أجلب الجمال إلى الأفراد من مواطني. وكما تعلمون فإن عملي قد رُفض. وكان جهدي الثاني ... يتيح التعاون والحياة الأفضل ... بديلٍ متنور للمدن الحقيرة المتنافسة الحيوانية التي تُقيد حرية المعاصرين لي وهذا أيضًا قوبل بالرفض ... وكان جهدي الثالث ممكنًا لو كانت هناك استجابة للجهدين الأولين. وكان يجب أن يرمي إلى إعادة تشكيل بلادي بعد أن تتحد قدراتي مع الآخرين من أمثالي، ويكون هدفنا هو خلق بنيان يمثِّل المواقف القومية الحرة والأمينة والطيبة التي يُعبِّر عنها السكان. ولكن ... العيب ليس فيَّ وإنما في حضارتي ومجتمعي ... فأنا قادر وراغب، ولكنكم لستم كذلك.»

إن موقف المعارضة من جانب الجماهير الذي بدأ في أول الأمر معارضةً لاختراعاته في العمارة، ثم للعمل الفني الممتاز، يصبح في حقيقته موقف معارضة للتغيير، موقف استسلام لما هو كائن. وغضَبُ أوريلي موجَّه إلى الاثنين؛ النظام، وأهله الذين يسكتون على دولة الطغيان. وهذا ما جعله يتورَّط في النهاية إلى تبني فكرة الرجال الممتازين والدهماء.

وليست هذه هي نقطة الضعف الوحيدة في رؤيا دروت؛ فهناك بقايا تأثيرات مذهب الطبيعة عند كيرواك والبيتنيكيين الأوائل ... فالأبنية القديمة جميلة، والطبيعة رائعة، والمستغلون الرأسماليون «ملئوا الأرض الجميلة بالشقوق والفتحات، وامتصوا ما بها من معادن، ثم تركوها كتلًا من الطمي ... ولوَّثوا الأنهار وحوَّلوا المياه إلى سموم قتلت ملايين الأسماك، وقضَوا على الحياة البرية، وأسقطوا الأشجار الطويلة ...» ويثور أوريلي؛ لأن البلدة هدمت بناءً جميلًا لرايت، وبَنَت مكانه محطة كهربائية. ويذكِّرنا هذا الموقف

بصفارة المصنع الكئيبة عند د.ه. لورنس، ورد الفعل الأول للثورة الصناعية بالقرن الثامن عشر، أقول يذكِّرنا فقط ولا ينتمي إليه؛ ذلك أن أغنية أوريلي المفضَّلة تقول: «آه يا إلهي، سيأتي عالَم أفضل.»

ولن يأتي هذا العالم الأفضل إلا بالتغيير ... والتغيير لم يَعُد تمردًا عشوائيًّا، وإنما «هو أن يُضيف المرء شيئًا جديدًا للأشياء بصورتها الراهنة» على حدِّ قول أوريلي الذي يضيف: «لا يتأتَّى التغيير بالمطالبة وإنما بالإحلال.»

وهكذا يتخطَّى دروت كلَّ المواقف الفردية للبيتنيكيين. يقول أوريلي: «ما كان بوسع إنسان بمفرده لسوء الحظ، أن يوقف ذلك؛ فعندما تنحدر أمةٌ فوق السفح، لا يستطيع مواطن واحد أن يقف في وجه السيل ويوجِّهها من جديد.»

ورغم الفشل المؤقَّت الذي يلحق به فهو لا يلقي السلاح، وإنما يهتف: «أقول لكل مَن يعنيه أمرُ الجمال أو الحق أو حتى العمل المتقن»، أو مجرد «ذكر الحقيقة في دولة الطغيان»: «لا بد لك أن تخوض حربَ عصابات ضد المجتمع الحديث.»

فلم يَعُد روبي أوريلي معماريًّا أو فنانًا فحسب، إنه صاحب دعوة اجتماعية. ودعوته الاجتماعية هي الثورة.

الفصل الأول

أدركت منذ طفولتي المبكِّرة قُبح كلِّ ما يحيط بي من صُنع الإنسان، ولكني لم أتبيَّن هذا في المنزل الذي أعيش فيه إلا فيما بعد. فقد كان منزلي ككلِّ ما عداه، قاصرًا، فقير البناء، وحشًا صغيرًا، ولمَّا كنت أقصِر انتقادي من قبلُ على الآلات واللَّعب والطائرات، فإن إدراكي المفاجئ بأن أبويَّ وأنا نفسي قد غُرر بنا، وفُرضت علينا الحياة في بناءٍ قبيح، صدمني، وأذلني، وجعلني أكثرَ غضبًا من أي وقتٍ مضى. تساءلت، «لماذا شُيِّد منزلنا بهذه الصورة الخاطئة؟ لماذا هو شديد القُبح؟ لماذا يقوم وسط أرضنا دون أن يعطينا شعورًا بالحرية البيتية، ولماذا لا يتميز حتى بالرحابة التي يجب أن تكون داخله؟ لماذا نُضطر إلى إضاءة النور وسط النهار، بينما كان في إمكاننا أن نتناول طعام الغذاء في الضوء الطبيعي لو لم نمنع ضوء الشمس بالسقف؟ لماذا؟ لماذا؟

وكانت أمي تُجيب على هذه الأسئلة بأن منزلنا جميل، وأننا محظوظون حقًّا إذ حصلنا عليه؛ لأن بعض الناس لا يملكون شيئًا يقضون حياتهم يدفعون لمالك ولا يفوزون بشيء في النهاية.

سألتها: «ولكن لماذا شُيِّد منزلنا هكذا بصورة خاطئة؟»

وأجابت أمي: «أظنك كنت تستطيع أن تُشيِّده بصورة أفضل؟»

كانت هذه، بالذات، هي اللحظة التي اخترت فيها طريقي في الحياة؛ فقد كان من الممكن أن أقول بتواضعٍ إنني بالطبع لا أستطيع أن أُشيده هكذا، أو أقول إنه بالرغم من أن هذا ليس في إمكاني؛ فهناك بالتأكيد مَن يستطيع ذلك، أو أبتسم لأمي ولا أتفوَّه بشيء، ولكني لم أفعل شيئًا من ذلك. فبثقة كاملة في سخافة السؤال ابتسمت وأجبت: «بالتأكيد كنت أستطيع أن أفعل أفضلَ من هذا بكثير. هل تُحبين أن أريَكِ؟»

وفي هذه اللحظة أيضًا حزمت أمي أمرها، وقد علا وجهها تعبيرٌ غريب؛ فقد قرَّرت الانتقال إلى الجانب الآخر، ورغم أنها كانت تتجاهل دائمًا عصياني ومخالفاتي وتظل على الحياد، فإنها أعلنت الآن انضمامها إلى «المعارضة»؛ فلم يكن بإمكانها أن تتجاهل هذه المرَّة سنوات وسنوات من الادخار قبل أن تتمكَّن من ابتياع هذا المنزل الذي يصِمه ابنها الآن بالقبح. ردت عليَّ في غضب: «كلا، لا أريدك أن تريني شيئًا أيها الشيطان الحاذق الصغير؛ لأني أعرف أنك مخطئ؛ فالمنزل الذي ستُشيِّده سينهار في خلال أسبوع إذا ما هبَّت بعض الرياح القوية، والآن اصعد إلى أعلى دون أن تتناول عشاءك الذي يكدُّ أبوك ويكدح ليوفره لك، وربما يجعلك هذا تتعلم كيف تكون أكثر تقديرًا للأمور.»

صعدتُ في هدوء، ولكني كنت أعرف أنني لن أقرَّ أبدًا ما هو خطأ. وعجبتُ لأمي، لماذا تريدني أن أكون هكذا. لماذا تريد أن تحملني على قبولِ ما أعرف أنه سيئ؟ فأينما تطلَّعت حولي رأيت أشياءَ قبيحةَ الشكل سمجة غير متقنة، صنعها الناس … سيارات ومنازل وأثاث ومصابيح وصحاف ودمًى وأكواب وملابس وأجهزة راديو وتليفزيون وصور وشوارع ومحلات وطائرات وأبنية مكاتب، ومحطة الخط الحديدي … لماذا لا يصنعونها بصورةٍ أفضلَ ما دام ذلك ليس بالأمر العسير؟ جعلت أدير هذا اللغز في رأسي، متعجِّبًا لسخافته، بينما مَعِدتي تؤلمني بخوائها من العشاء الذي حُرمت منه. وعندما عاد أبي صعد الدَّرج وجلدني بالسوط لأني ضايقت أمي، وبعد أن تركني، بكيت في الظلام، وأنا لا أزال عاجزًا عن فهمِ ما يريدانه مني. أدرتُ جهاز الراديو لكن الموسيقى الصاخبة، والكلمات المتحذلقة، والعواطف النشوانة، سرعان ما ذكَّرتني بالقبح من جديد، فأغلقت الجهاز. لماذا ترى الناس الذين يبنون الأشياء ويصنعونها، يبنونها ويصنعونها خطأ؟ لماذا لا يصنع الناس أشياءَ حسنة، أو على الأقل يعترفون بقبحِ ما يصنعونه؟ ركَّزت تفكيري أكثرَ من مرة ولكني لم أعثر على إجابة داخلي. وأخيرًا غفوت.

وسرعان ما أصبحت الحياة تدريجيًّا بعد هذا باعثةً على اليأس؛ فلم أعد أنتظر شيئًا هامًّا — قولًا وفعلًا — من أحد البالغين حولي، بما في ذلك مدرِّسي في الصف السادس. ولما كنت قد سويت أموري مع أبويَّ باستبعادهما من عالمي؛ فقد أصبح واقع حياتي أكثرَ معقوليةً من ذي قبل، وهو الذي ينقسم إلى مركزين؛ المدرسة والمنزل، وكلاهما لم يَعُد حقيقيًّا بالنسبة لي. أما الإمكانية الثالثة أمامي، كمركز للمعنى الإنساني، وهي الغيبيات فقد سبق لي أن استبعدتها بالمثل؛ فقد كانت الكنيسة أقبحَ في بلدتنا، ولم يكن للقس منهم كما يبدو سوى السعي خلف أموال الناس. وهكذا أُجبرت على أن أُحلِّق في عالمٍ من صُنعي

أنا، من أحلام اليقظة في المدرسة، إلى الانزواء في حجرتي أو القبو بعيدًا عن أبويَّ عندما أكون بالمنزل، والذهاب إلى الكنيسة متبرِّمًا عندما أُرغم على هذا. شعرت بالوحدة والضياع، وفيما عدا الوقت الذي أقضيه في ورشتي الصغيرة، لم يكن حماسي يتأجَّج إلا في المكتبة، وخلال الكتب التي كنت أقرؤها بالنهار أحيانًا وعلى ضوء مشعلي تحت الأغطية بالليل أحيانًا أخرى؛ لأن أبويَّ توعَّداني بإلغاء بطاقة المكتبة لو أمسكا بي أقرأ في وقتٍ متأخر.

كان مبنى المكتبة مُشيَّدًا من الحجارة الكبيرة، قبيحًا كبقية المباني في بلدتي، لكنه كان يضم ثلاثة طوابق من الكتب وسيدة عجوزًا غريبة كانت تُباشر عملها في المكتبة وهي تحمل على كتفها ببغاء صغيرة لا تكُف عن الثرثرة. كان ريش الطائر اللامع الخضرة يتناقض مع بشرة وجهها الصفراء المحصبة، وهي تُحدق فيَّ من وراء منظارها وتبتسم هازَّة رأسَها الناصع البياض: «حسنًا، عمَّ تبحث اليوم يا روبي الصغير؟ أنت تعرف بالطبع أنه غير مسموحٍ لك بالصعود إلى طابق البالغين، وأنا أتجاهل هذا لسببٍ واحد هو أنك قد قرأت كلَّ ما لدينا هنا في قسم الأطفال. اقترِب مني، لا تخفْ.» وتغمز لي: «أعتقد أنه لم يَعُد هناك في الطابق الأسفل ما يثير اهتمامك، أليس كذلك؟ اليوم سأُريك شيئًا ... الإغريق. لا تقلق؛ فلن أوجِّهك إلى ما تقرأ، سأُريك فقط القسم الذي نحتفظ فيه بكتبنا عن الإغريق. تعالَ، أعطني يدك.» وتقودني خلال أكوام الكتب وهي تضحك وتداعب ببغاءها بشفاهٍ مطبقة. ثم تقول وهي تشير بيدها إلى القسم الذي تعنيه بين الرفوف. «ليس من حقك بالطبع أن تفتح أحد هذه الكتب ... لكن بصري ضعيف وأنا أَعِدك إذا ما أُعجبت بكتابين منها أن أنظر إلى الناحية الأخرى عندما أختمهما. اثنان فقط الآن، أفهمت؟»

عندئذٍ أومئُ لها برأسي، وعندما تبتعد بطائرها، أطير بعينيَّ فوق الكتب الممنوعة، وأختار ثلاثة من أضخمها، أحملها في مشقَّة، شاعرًا بالذنب، إلى مكتب العجوز بجوار الباب حيث تَطَّلِع عليها دون أن تُعلِّق بشيء مباشرةً لي وإنما تُحدِّث صديقها الصغير ذا الريش: «إنه لبارع، هذا الروبي روي، يا هركي، وأخشى أن يعطينا مقلبًا لو لم نكن حذرين، ولكن ماذا نتوقَّع عندما نطعن في السن ولا نستطيع أن نقرأ حتى النقطة.»

كان مبنى المكتبة الحجري الرمادي مُحاطًا بشجيرات وممرات، ونافورة تتوسط حوضًا صغيرًا. وفي بعض الأحيان كنت أختفي على الفور وألقي نظرةً سريعة على كُتبي المرعبة فوق أحد المقاعد الحجرية بجوار البِركة. كانت هناك الإلياذة والأوديسة، وموضوعات تاريخية أخرى والتراجيديات العظيمة، وأَشعار مثل أناشيد سافو، وكُتب يعسر عليَّ فهمُها كالجمهورية والمحاورات، رغم أن أفلاطون أوضح لي أن الأذكياء يختلفون في أعمق أفكارهم،

وأن لا شيء يقينيٌّ كما كانت بروكدال، بلدتي، تريدني أن أومن، وأنه لا يوجد ثمَّة نهاية للتساؤل إلى أن يتناول الإنسان السُّم كما فعل سقراط.

كانت لديَّ أماكن ثلاثة أقرأ فيها دون أن يقاطعني أحد ... المكتبة، إما بالداخل بجوار المدفأة أو في الشمس على مقعد حيث أصغي لكركرة الميزاب، وفي المنزل في حجرتي بالليل، وأحيانًا أسفل جسر الخط الحديدي على الترعة حيث يكون في إمكاني أن أصيد السمك أو أدلي الكبد لسرطان البحر بينما أقرأ طول اليوم كيف شئت. ومع ذلك كنت في أغلب الأحيان، ألقي نظرةً على كُتبي بالقرب من المكتبة، كي أرى ما أحمل، وأتوجَّه إلى منزلي، مارًّا بالمروج الخُضر المنسَّقة، ومنازلَ تُشبه الأكواخ صُنعت من الطوب والحجارة وألواح الخشب، تحيط بها أسيجةٌ من النباتات وأحواض الزهور، وعندما أبلُغ منزلي أخفي الكتب تحت قميصي وأتسلل إلى حجرتي، فأصفُّها على رفي مخفيًا إياها خلف جهاز الراديو. وعندما أبغي القراءة في أحدها، أضعه تحت حزامي، وآخذه معي إلى جسر الخط الحديدي، مع كلبي وسنارتي، دون أن أتوقَّف إلا عند بقالة مستر كوبيتشيك؛ لأبتاع قطعةً من الكبد تساوي نِكلة كي أدليها لسرطان البحر.

والذي حدث أني بدأت أهتم، بتأثير صور كتب الإغريق، وكتب الرومان وغيرهم بعد ذلك، بالمباني وعمارة الماضي، وإذ رأيت كيف كانت الأبنية القديمة جميلة التناسق، شعرت بذلةٍ شديدة مبعثها أن مباني عصري واضحة التخلُّف، ولو كنت اعتقدت بأنني بهذا أدنى من الإغريق والرومان، وبناة كاتدرائية عصر النهضة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، فربما راجعت نفسي، لكنني قد حسمت رأيي بأني أستطيع أن أُصمِّم مبانيَ أفضل من تلك التي أراها حواليَّ، وإذا كان هذا بوسعي فهو أيضًا بوسع آخرين غيري، وإذا كان هذا بوسعهم فربما كان عجز بلدتي عن إنتاج مبانٍ وزخارف جميلة مثل التي أنتجتها غيرها مجرَّد غلطة. ثم أتساءل، لماذا لم يحدث هذا، لماذا كانت إنجازات عصري شديدة القُبح، أبعد من أن تكون جميلة، قوية الملمس ومسرة للعين؟ لماذا لم تكن هناك آثار سامقة أينما أنظر؟ وانتهيت إلى أنها ربما وُجدت دون أن أراها.

كان هناك مبنًى واحد في كل بروكدال، بولاية إيلينوي، يشعرني بالفخر. وكان يُدعى بـ «المركز»، ولم يكن يستخدمه سوى الصبية في الشتاء عندما يبحثون عن مكان دافئ لأحذية الانزلاق، وعندما يقيم طلبة المدرسة العليا حفلاتهم الراقصة بالليل مرتين في الأسبوع. كان يمتد بمحاذاة الجدول في مكانٍ فسيح يتجمَّد فيه الماء، ورغم أنه كان منزلًا يومًا ما فإنه آل للقرية قبل أن أبلغ العاشرة بسنواتٍ عندما مات آخرُ أفراد العائلة، وكانت عجوز تحتفظ

بأربعة كلاب كبار. أثار هذا المنزل اهتمامي بادئ الأمر بغرابته؛ فقد كانت له جدران من الأسمنت وسقف خشبي عظيم وشُرفات من الحجر المسطَّح تحيط بها أسوار من الأسمنت جُعلت أركانها من أحجار عالية، وشُيدت بها أوعية كبيرة واسعة من الأسمنت للنباتات. وفي الداخل كانت هناك دعامات سوداء سميكة، وقاعة ضخمة في نهايتها مدفأة كبيرة من الصخر المحروق تَسع قطع من الخشب في طول فلنكات الخط الحديدي. كان المكان نموذجيًّا للانزلاق؛ لأن منحدرًا من الأسمنت كان يؤدي مباشرةً من بابٍ قُرب المدفأة إلى أسفل، ثم يدور إلى شرفة كبيرة تطل على الجدول. وقد كان المنزل بالطبع صغيرًا لكن الجدران والشرفات الخارجية، كانت كلها جزءًا منه، تُشعرك بأنها متصلة به، أو هي فعلًا بذلك السقف العظيم الواطئ الذي كان يبدو أكبر من حقيقته. لكن السبب الأساسي الذي جعلني أفخر به هو انضباطه. فلم تكن ثمة أخطاء يمكن رؤيتها (إذا تغضينا عن بعض الشقوق في الخرسانة التي ترجع إلى الإهمال)، فمن أي ناحية أقبلت على المنزل كان يبدو مذهلًا، متكاملًا، دون زوائد قبيحة تبرز منه مثل الأصابع المتقرحة. وكلما تأملته زاد فخري به، وببروكدال لأنها تضمه، وبنفسي لأني أستخدمه ... وذات خريف هدمته البلدة فجأة لتُنشئ مكانه محطة كهربائية، ووقفتُ عاجزًا، وقلبي يدق للخسارة، وغضبي يشتعل لهذا الظلم، وسرعان ما اختفى «الشيء الوحيد الجميل في بروكدال».

فكرت جديًّا بعد ذلك في أن أصير مجرمًا، أغير على البنوك، وأسرق من المنازل القبيحة، وأقتل، وأوذي بصورةٍ ما الناسَ الذين ألحقوا بي الأذى، ولا يخالجكم الشك في أن هذا كان سيحدث لو لم أذكر لِمس ريسك، عجوز المكتبة، كم أجببت «المركز». فقد أفضيت لها ذات يوم: «لقد كان الشيء الوحيد الجميل في بروكدال وقد هدمته الجرذان، فماذا ترين في هذا؟» وقفت أمام مكتبها، منفرج الساقين، ويداي متشبثتان بعجزي، وفكَّرت كيف أني أستطيع بحركة واحدة أن أوقع بالببغاء الذي يعتلي كتفها، بل وربما حطَّمت عنقه الجميل.

قالت برقة: «حسنًا، لقد هدموه بالتأكيد ... لا يمكن إنكار ذلك.»

فأجبت: «بالطبع لا يمكن» ... وكانت عيناي الحاقدتان ما تزالان على عُنق الطائر.

«لكن لا أعتقد أنهم سيهدمونها كلها. أتعرف أن الرجل الذي شَيَّد هذا البناء شَيَّد مباني كثيرة غيره، ويمكن رؤية بعضها في هذه الأنحاء؛ فهي تبعد عنا مسافةً يمكن للدراجة أن تقطعها بسهولة؛ فهناك كلوني هاوس في ريفرسيد وبناءان أو ثلاثة أخرى هناك، ثم إن رحلة بالدراجة تستغرق يومًا إلى الجين تحملك إلى مبنى كامبانا ... وهو حقًّا شيء رائع. إن واحدًا من هذه المباني لم يُهدم. هل تعرف ما قاله ذلك الرجل، بانيها، عندما

سمع أن بروكدال ستهدم «المركز»؟ قال: هذا أفضل لهم، إني أُفضِّل أن يهدموه على أن يحولوه إلى محطة كهربائية. بالطبع لن أذكر لك كلَّ ما قاله، ولكنه روى نكته سخر فيها بهذه البلاد. هل تعرف معنى السخرية؟»

هززت رأسي نفيًا.

«حسنًا، إنها شكل حادٌّ من الفكاهة، أحد أنواع النكت. وقد قال هذا الباني: إنَّ هدم الروائع الفنية واستبدالها بمحطة كهربائية هو من طبيعة هذه البلاد. ثم ضحك. هل تعرف هذا؟ لقد ضحك، رغم أن الأمر كان يؤلمه للغاية.»

شعرت بفيضٍ عظيم من الإدراك، رغم أني أجد تفسير ذلك الآن أمرًا عسيرًا. فعندما كان أحد الأشخاص يذكر لي شيئًا، كنت أراجعه بشكلٍ ما على كلِّ ما رأيت أو سمعت أو عرفت منذ وعيت، وكانت أجراس الزيف تدوِّي في رأسي عادةً عندما لا يتطابق الشيء الجديد مع معلوماتي السابقة فأُدرك أنه ليس صحيحًا وأنه أكذوبة. أما هذه المرة فلم يكن هناك جرس إنذار، كانت كلمات العجوز وما قاله الباني تتفقان تمامًا دون تنافر مع كلِّ ما مرَّ بي من قبل، كان الأمر صدقًا إذن، وغاص في عقلي دون أن يطالبني بأن أنكر شيئًا أتذكَّره، كان ببساطة مضبوطًا، يُضيف نفسه إلى كلِّ ما كنت أعرفه بالفعل. كان ذلك رائعًا؛ فقد شعرت أن هناك على الأقل شخصًا واحدًا آخرَ أُضير بشدة أيضًا، وهذا الشخص الآخر قد ضحِك، ألقى برأسه إلى الوراء وضحك، ثم قال الصدق، وإذا كان هذا بوسعه فهو بوسعي أنا الآخر.

ضحِكت في وجه مس ريسك العجوز، ثم قلت: «ووو.» وشعرت بأني على حافة الغليان؛ فقد كانت الدماء تتدافع إلى رأسي ووجهي، والتهبت أُذناي، وارتعش جِلدي احمرارًا. فقدتُ عقلي لثانية وفكَّرت في أشياء من قبيل: هل أدفع هذا المقعد إلى الأرض؟ هل أصنع نموذجًا خشبيًّا من «المركز» ليلًا بيدي المجرَّدتين نكايةً فيهم؟ هل أجذب الببغاء واعتصرها حتى تموت؟ هل أضحك بصوتٍ يدوي في هذه المكتبة الهادئة القبيحة؟ طويت أصابع يدي في قبضتين وأنا أُحدِّق في الطائر الذي يعتلي كتِف مس ريسك. لكنني قررت أن أتركه في سلام. وفكَّرت أن هذا سيكون لفتة طيبة في حق مس ريسك، فعدَلت عن قتله.

سألتني مس ريسك: «أتحب أن ترى صورة الرجل الذي بنى «المركز»؟»

حوَّلت عيني بصعوبةٍ عن الطائر إلى عينيها، لكنني لم أستطِع التفوُّه بشيء. كلُّ ما أمكنني أن أفعله هو أن أشدَّ على قبضتي في قوةٍ حالت بيني وبين النُّطق، وبدا لي هذا أمرًا سليمًا بدوره. راقبتها وهي تنهض وتتناول قبضتي في يدها الناعمة الدافئة المعرُوقة، ثم

تقودني إلى رفٍّ يحمل هذه الكلمة «العمارة». ومدَّت يدها وجذبت كتابًا مُضحكًا، مُربع الشكل، لكنه كبير وسميك مثل باقي الكتب.

قالت: «كلُّ هذه الكتب عن المباني وبُناتها، وكل كُتب هذا الصف عن الرجل الذي بنى «المركز» ... بل إنه كتب بعضها بنفسه.»

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وهي تفتح الكتابَ وتُدلِّيه إلى أسفل كي أتمكَّن من رؤيته. كانت هناك صورة الرجل؛ الرجل نفسه الذي فكَّر في «المركز» ووضع خطته وبناه، وفعل كلَّ شيء على وجهه الصحيح. كان له شعر أبيض ورأس مثلَّث بجبهة عريضة وذقن رفيع. أغلقت مس ريسك الكتاب فجأةً وأعادته إلى الرف وتركتني وحدي، أمام كلِّ تلك الكتب. وشعرت بتلك الرِّعشة الشديدة مرةً أخرى، وأنا أُحدق فيها بغضب، ثم قرَّرت أن آخذ كل هذه الكتب التي كتبها هذا الرجل، وسأضربها لو منعتني؛ لأنها كتبي أنا ويجب أن أحوزها. أحضرت الدَّرج بسرعة من الركن، وارتقيته، ثم أخذت الكتب الخمسة التي تحمل اسمه، ومررت من أمام مس ريسك، دون أن أسألها أن تختمها؛ لأني لم أكن أود أن أضطر إلى ضربها لو اعترضت على عددها، لأني أحبُّها. لكنها لم ترَني، وجريت إلى منزلي، فحزمت جَعبتي، وتركت ورقةً لأمي أقول فيها إني سأقضي الليلة مخيمًا في العراء، وجريت إلى الغابات والجدول وجسر الخط الحديدي.

كَوَّمتُ الكتب أمامي، على ضِفة الجدول، وقرأت في تركيز يومين كاملين.

الفصل الثاني

عندما عُدتُ إلى المنزل لم أوجِّه كلمة إلى أحد، فقط تناولت عشائي وصعدت إلى حجرتي، حيث تمددت على فراشي وجعلت أُقلب في صور المنازل والمباني. كانت جميعًا مُذهلة، بالطبع، تفوق في مغناطيسيتها «المركز» الصغير، الذي لم أعُد أحفل بأمره كثيرًا … كما يحدث عندما يفقد المرء زهرةً واحدة في حوضٍ كامل من الزهور، وهو أمرٌ مُحزنٌ حقًّا، لكن لا تزال هناك كل هذه المباني الأخرى، وبعضها أكبر وأكثر أهمية. فكَّرت في روعة الحياة لو كانت هذه الأعمال خلفي أنا. كنت أبقى حينئذٍ في المنزل طول اليوم أستمع لمباريات الكرة؛ لأنه لن تكون ثمة حاجة لعمل شيء آخر. لكنها لم تكن ملكي، ولهذا أردت أن أضع خلفي، بأسرع ما يمكن، أشياء مثلها، أشياء أبنيها أنا نفسي، حتى أشعر بالراحة.

وذات يوم من أيام ذلك الشهر، وفي الصباح الباكر قبل أن تُشرق الشمس، هبطت الدَّرج في سكون، ودفعت بخمس شطائر في قميصي، وارتقيت دراجتي، وانطلقت إلى ريفرسيد على مبعدة ثلاثة أميال لأرى ضيعة كونلي الهائلة. انطلقت في سرعة في الطريق الرئيسي، أُحرك البدَّال وأنا أقضم الشطائر، وأتفرَّج على مناظر شنعاء. كان الهواء حارًّا. وعندما أقبلت على البلدة وجدت حانوتًا مفتوحًا، فولجته وتناولت كوبين من اللبن وفطيرة كريز. وعندما انتهيت من الأكل سألت البائع عن ضيعة كونلي.

«ماذا …؟»

ظننت أنني قد أخطأت النُّطق، فذكرت له الاسم حرفًا حرفًا «ك. و. ن. ل. ي الضيعة الكبيرة التي بناها فرانك لويد رايت. لقد جئت لأراها.»

وقال لي الرجل: «لم أسمع عنها أبدًا يا ولدي.»

تساءلت وأنا أشقُّ طريقي إلى الخارج حيث تقف دراجتي، تُرى أأصابها الدمار هي الأخرى؟ أم أخطأ الكتاب بشأن مكانها؟ وقررت أن أبذل محاولةً أخرى حتى لا تذهب

رحلتي سُدًى، فجعلت أستوقف المارَّة في الطريق؛ أسألهم عن مكان الضيعة. وعندما كانوا يتطلعون إليَّ في حيرة صامتة، كنت أضيف بعض المعلومات: «لقد بناها فرانك لويد رايت منذ خمسين عامًا. وهي مكان ضخم هنا في ريفرسيد، وقد قطعت كلَّ هذه المسافة من بروكدال لأراها.» لكن النظرات الحائرة استمرت، فلم يسبق لأحد منهم أن سمع عن كونلي هذا أبدًا. وأضيف وأنا أستوقف ناسًا يهرولون إلى قطاراتهم في طريقهم إلى أعمالهم: «كان كونلي مُقاولًا أرلنديًّا في بداية القرن ... وأنا أعرف أن ضيعته هنا في مكانٍ ما.» وأخيرًا قرَّرت يائسًا أن ألجأ إلى مركز البوليس.

رويت قصتي للرقيب الموجود، ووصفت له الضيعة التي تحتوي على منزلٍ ضخم وحوض للسباحة وجاراجات ومنزل بوابة، ثم رسمت له كروكيًّا لها فوق قطعة من الورق، لكنه هزَّ رأسه: «لم أسمع عنها مطلقًا يا بني. لكن هناك مكان يُشبهها بالقرب من النهر على طريق فيربانكس، أمام الطاحونة القديمة ... ويملكه كروهلر، صانع الأثاث الكبير. أما هذا الفرانك لويد لم أسمع عنه من قبل.»

قلت: «ربما ابتاعها كروهلر.»

«ربما ... انتظر برهة ... إنه يملكها منذ ست أو سبع سنوات. أعتقد أن أمَّه فقط هي التي تعيش بها الآن مع بعض الخدم، وقد تمنعك من الدخول.»

«كل ما أريده هو أن ألقي نظرة.»

انطلقتُ بدراجتي في الطريق الموازي للنهر حتى بلغت حائطًا ضخمًا، أصفر اللون، من الخرسانة. كانت هي الضيعة؛ فقد تعرفت عليها من صورها، رغم أن الجدران كانت بيضاء عندما تم التقاطها. وكانت الضيعة تكوينًا جميلًا من ستة أشكال، كلٌّ منها يؤدي من وإلى حوض السباحة الذي يطل عليه المنزل الرئيسي بحائط كامل من الأبواب الزجاجية تؤدي إلى حديقة منعزلة لكنها كبيرة. وكان الطابَق الثاني فيما يبدو مكانًا فخمًا للجلوس يعلوه ويحميه سقف مسطَّح عريض يرتفع فوق دعامات ضخمة من خشب السنديان الداكن. وعلى طول الجدار تقوم الجاراجات وحظائر الخيل وأماكن الخدم ومنزل الحارس، لكنها جميعًا كانت تتصل بالمنزل الرئيسي برَدهات مسقوفة، بحيث كانت الحدود الخارجية للمنزل الرئيسي عبارة عن جدار الضيعة نفسها، فتبدو المباني الداخلية كأنها غُرف، بعضها يُفتح على حدائق وأحواض سباحة صغيرة، لكنها جميعًا تستحث العين أن تتجه إلى الحديقة الرئيسية العظمى وحوض سباحتها، تطل عليه الواجهة الزجاجية للمنزل الرئيسي الذي يحميه السقف العظيم، مغطيًا كلَّ شيء، ومتصلًا بكل شيء.

وكانت الضيعة كلها شكلًا واحدًا، مما أذهلني؛ لأني لم أشهد أبدًا من قبلُ شيئًا يعتقل الفضاء الذي يشغله بدلًا من أن تعتقله الأرض التي يقوم فوقها. وعندما فكَّرت في أن كلَّ ما يحدث في ضيعة كونلي، كان يحدث داخلها لا فوقها، تبيَّنت كم كان الأمر مثيرًا؛ فالفصول تتعاقب داخلها، والطيور تطير في أنحائها داخلة إليها خارجة منها. ولم يكن هناك من سبيل لتصور شيء مشابه إلا إذا أغمضت عيني. وتخيلت تساقط أوراق الشجر في غرفتي، أو الجليد في جانب من منزلي. وأدركت من وضعِ أكبرِ مدْخنة، أن واحدة أخرى من تلك المدافئ الفاغرةِ أفواهها، التي رأيتها في «المركز»، تهيمن على نواة هذه الضيعة المعقَّدة. وكأنني كنت أشهد تجسيدًا للتناقض بين «الداخل» و«الخارج» في صورةِ مركزٍ مُشعٍّ يتحكم في كلِّ ما عداه أو قضيب من قضبان رفع الأثقال يحمل المدفأة في أحد طرفيه بصفتها النقطة البؤرية للمنزل، والحديقة والحوض في الطرف الآخر بصفتها النقطة البؤرية «للحجرة الخارجية»، يصل بينهما قضيب ديناميكي من التوتر البالغ، بحيث يستحيل أن تعرف ما الذي يتحرَّك وفي أي اتجاه. كان عليَّ أن أفترض أن الجذب والشد بين الإنسان والطبيعة قد تجسَّد هنا في لحظةٍ من التوازن المطلق. وهذا هو ما جعل الضيعة كلها رائعة من التوتر الساكن، كل جزء فيها يشترك بنفس القدر في تحقيق التوازن. كان شكلًا جميلًا، لكنه كان عقيدة أيضًا، أسلوبًا في الحياة يعطي الشكل كلَّ طاقته، يدفئه كشيء حي ويسمح له أن يُعبِّر بحرية عن تفاعل البشرية بالطبيعة.

طُفتُ بأرجاء الضيعة، وعقلي يلتهم الرؤيا من كل جانب، دون أن ألاحظ غياب الشمس. ولم تكن دراجتي مزودةً بمصباح؛ لهذا كان عليَّ أن أسرع بالعودة إلى منزلي قبل حلول الظلام.

وما كان بوسعي أن أفكِّر في ضيعة كونلي وأنا أقود دراجتي عائدًا إلى بروكدال؛ فقد كانت التجربة طاغية، تحُول دون استخلاص النتائج السريعة. وبدلًا من هذا جعلتُ أتمثَّل الرجل الذي بناها وكيف أنه كان يشعر بالفخر ولا شك وهو يخرجها من العدم في عناية. قلت لنفسي إن فرانك لويد رايت رجلٌ دقيق شديد الاعتناء، أستاذ في التصميم، رسَّام على قدرٍ رائع من المهارة والأناقة، بنَّاء يتميز برقةٍ شديدة، فنَّان حسَّاس رفيع التذوق، رجلٌ يسعى من أجل التوازن والراحة والسكون أساسًا، وقد حقَّق كلَّ هذه الغايات الثلاث في عمارة كونلي. وفكَّرت كم كان مسرورًا وراضيًا بهذا العمل العظيم.

سحقني منزلي بهيكله القبيح عندما بلغته وعبرت بوابته بدراجتي، واندفعت إلى حجرتي. كان منزلي سجنًا يعذِّب عقلي، وخاصةً الآن وأنا أعرف ما كان يمكن أن يكون.

تلك هي الليلة التي شرعت فيها، وقد استلقيت على فراشي مشبكًا يديَّ خلف رأسي، أصمِّم منزلي الجديد، المكان الذي سأعيش فيه عندما أصبِح مهندسًا مثل فرانك لويد رايت. حاولت في البداية أن أتخيَّله مزيجًا صلبًا ثابتًا من الإنسان والطبيعة، توقَّف برهةً في حركته نحو لحظة فرح وسلام، كما تخيَّل رايت ضيعةَ كونلي، لكني وجدت أن هذا خطأ، وأني لا أستطيع أن أصنع الأشياء بهذه الطريقة. إذن ما هي طريقتي؟ أعوزتني الإجابة. كنت من قبلُ أفكِّر بمعايير «سليم» وغير «سليم»، وهو ما كان أمرًا سهلًا؛ فكلُّ ما فعلته حتى الآن كان سليمًا. لكني أدركت الآن أن هناك ما هو أكثر من ذلك. كان عليَّ أن أُعبِّر عن شيءٍ ما في كلِّ ما أبنيه، وكي أستطيع ذلك لا بد وأن يكون لديَّ ما أُعبِّر عنه، فماذا أريد أن أقول للبشرية كلِّها في أبنيتي، ما هو البيان الذي أصدِره؟ كانت كافة البيانات التي سمعتها تبدو لي خاطئة، بما في ذلك بيان فرانك لويد رايت، وهكذا أدركت أنه لا بد لي من العثور على شيء جديد أو ابتداعه.

هذه هي المشكلة التي شغلت وقتي، وجعلت تتأجج في عقلي، حتى أصبحت تدريجيًّا المرآة المركزية التي تنعكس عليها كلُّ الأفكار والأشياء. وفي هذه الأثناء تخرَّجت من المدرسة الابتدائية وبدأت أتردَّد على مدرسة ريفسيد بروكدال الثانوية، التي كانت في منتصف المسافة بين البلدتين.

وخلال سنوات المراهقة المبكِّرة، تحوَّلت إلى شعراء عصري البارزين أبحث لديهم عن إجابة جديدة. لكني لم أجد شيئًا لم يكن مضحكًا، وجعلني افتقادُ ما أقرأ للعمق أشكُّ في سلامة اختيار هؤلاء الرجال متحدثين باسم معاصري. فقد كانت رسالة ف. سكوت فيتزجرالد فيما يبدو هي أن الأغنياء يجسِّدون أجملَ ما في البشرية، وإذا كانوا لا يساوون شيئًا أو يواجهون المتاعب فهذا هو شأن البشرية أيضًا. وزعم هيمنجواي أن الرجال رياضيون، وأن الحياة لعبة، ولا يمكن الحكم على الناس إلا من خلال الطريقة التي يواجهون بها نتيجة اللعبة. وادَّعى إليوت أن الحياة أرض خراب تسكنها التماثيل، ورأى أونيل فيها جنونًا لا يتمتَّع فيها ببصيرةٍ نافذة إلا مَن كان أقرب إلى حافته. وقال كمينجز إن الحياة عبارة ببساطة عن حجرة هائلة وإن الناس جميعًا سكان. وقال فروست إن الإنسان يعيش ليخدم نفسه وبلاده، وإن معنى الحياة في أن يقوم المرء بالواجب الذي عُهد إليه. وكان الشاعر الوحيد الذي لم يقلِّل من شأن الحياة هو شكسبير؛ فقد قال هذا المنشد الفريد إن الإنسان قادرٌ على أن يتخيَّل نفسه في أي صورة شاء، وإن كافة الأقنعة كوميدية

أو تراجيدية، وأحيانًا كلاهما، ولكنها تتساوى جميعًا في أنها ثمرة خداع لأنفسهم، و«لا تعني شيئًا».

لم يمضِ وقت طويل حتى كنت أعود إلى العمارة طلبًا للعون، ورغم أني واصلت البحث عن مباني رايت، أدرسها، وأرسمها، وأستمتع بها — حتى وأنا أقرأ أعمال مَن ذكرتهم فيما سبق — فقد أصبحت الآن مهتمًّا بمعلِّم رايت، لويس سوليفان. فقد قال سوليفان لتلميذه: «السبيل لأن تستعيد شيئًا هو أن تستعيده.» وقد رَنَّت هذه الرسالة في أُذنَي رايت في نهاية القرن الماضي.

وجدت أن سوليفان لم يكن غامضًا ولا موحيًا؛ فقد كان يعرف ما يريد، وفعَله، ولم يكن في حاجة إلى مترجم يفسِّر أعماله؛ لأن كلَّ ما كانه وآمن به، بل وأكثر من ذلك، كان يبدو في عمله. لم يكن هناك سِر، ولم يكن الأمر شاقًّا، ولم تكن هناك أقنعة ماهرة تحيط ببيان مبتذَل — كما كنت أتوقَّع — بل إن جبروت ما قاله سوليفان في جلاءٍ هو ما جعل رجالَ السلطة والذوق في عصره ينصرفون عن عمله. لقد قال إن الإنسان عظيمٌ وسامٍ، عاصفة جبارة من القوة بوسعِها أن تجتاح أيَّ شيء. وفكَّرت … لا عجب إذن أن ينكروه. فلو أقرُّوا نداءه: «إنها لمجيدةٌ حياة الإنسان، وبهجة من الأعمال الجميلة القوية»، لكان عليهم أن يعترفوا بأنهم استثناءات من قاعدة سامية ما داموا لم يحققوا شيئًا عظيمًا، وأنهم هم غير المتلائمين، «المخطئين»، وأن سوليفان نفسَه هو الرجل «الطبيعي». لقد قال لهم انظروا إلى عملي، وانظروا إلى ما تستطيعونه، وكونوا جبابرة، كونوا عظماء، وارفعوا رءوسكم، وامشوا في الأرض كالآلهة كما خُلقتم لتفعلوا؛ تلك كانت صيحة سوليفان المدوِّية، التي ضحِك منها أو تجاهلها أولئك الذين صغَّروا عن عمدٍ من شأن مصائرهم هم.

كنت في تعرُّفي على سوليفان أشبهَ بمن يتعقَّب سرًّا من الأسرار؛ فلم يكن يعرف شيئًا عن «السيد العزيز»، كما كان رايت يدعوه، إلا قلة من الناس، كانوا يرفضون الحديث؛ لأنها كانت قصة مؤلمة. بل إن مباني الرجل العظيم صارت أشباحًا، أُبقي على بعضها بشرط أن تظل مجهولة وغامضة، بينما هُدم أغلبها في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن. كنت أبحث عنها عبثًا بعد عشرين عامًا فقط من عام ١٩٢٤، الذي مات فيه الرجل فقيرًا عاجزًا في غرفةٍ بأحد فنادق شيكاغو الرخيصة.

وعثرت على ضيعة بابسون على مبعدةِ أميالٍ قليلة من منزلي، وكانت الغابات تخفيها، ووجدتهم قد حوَّلوها إلى ديرٍ للراهبات. قالت لي الأم الرئيسة: «سوف نهدمها قريبًا لنفسح المجال لمستعمرةٍ سكنية. فثَمن الأرض مرتفع لقربها من ريفرسيد، والكنيسة تحتاج

إلى نقود.» كان مكانًا غريبًا شُيِّد بجوار الشارع الذي أصبح فيما بعدُ الشارعَ الرئيسي في البلدة، لكن الأشجار والمروج — يحدُّها جميعًا سياجٌ عالٍ من الطوب — كانت تحيط به بحيث تخفيه عن الناس وتجعله شيئًا خاصًّا مُصانًا، لا يعرف بما تؤدي إليه البوابات الحديدية الكبيرة إلا قلةٌ من الجيران.

وكان المنزل الرئيسي عبارة عن سقف خشبي كبير على هيئة رقْم سبعة منفرجة الساقين، ويستند إلى أعمدةٍ سميكةٍ من الطوب، ذكَّرتني بقبضةٍ مرفوعة قليلًا، ينحدر السقف إلى الخلف فوق ساعدها حتى يقارب الأرض، بينما يرتفع من الأمام واسعًا وعاليًا وسميكًا، وأعمدته العظيمة من السنديان مزخرفة في نهايتها بمفاصل أصابع ضخمة «تدافع» عن المدخل، وتتحدَّى الداخل. كأنما كان سوليفان يقول «ها أنا ذا»، فيُصاب المتفرِّج بالحيرة … كان المنزل أكثرَ من تحدٍّ مُوجَّه للسماء بالارتفاع البطيء المقصود لسقفه الطويل عند المدخل. كان لكمة في وجه العدم، لطمة هائلة للشمس والنجوم، ترتفع بقامة مَن ينظر إليها إلى مستوى الطبيعة: «أصغوا، يا مَن في الخارج أمامي، أيًّا كنتم، الطبيعة أم الله أم العدم، ها أنا ذا.» بدأت أفهم لماذا اتَّهم الكثيرون سوليفان بالإلحاد. فهذا المعماري كان يزعم أن الإنسان موجود بالرغم من أي قوة غيبية، وأنه ليس في حاجةٍ إلى رحمةٍ منها، بل ولا إلى خلاصٍ ما. كان كائنًا قائمًا بذاته، ساعد نفسه، وشقَّ طريقه الخاص، وكانت له روحه الخاصة التي يعبدها. لقد أعلن سوليفان أن «الشكل يتبع الروح». وإذا صدَق هذا على المباني فهو يصدُق أيضًا على الإنسان. كان حقًّا إعلانًا مذهلًا … إن مباني الإنسان يجب أن تُخلق في صورته، لا أن تُخلق من أجل الآلهة كما فعل اليونان والرومان وبُناة كاتدرائيات عصر النهضة، أو المجتمع الذي استسلم له أغلب البُناة في عصر سوليفان، أو لتصوير الإنسان في اتحاده مع الطبيعة كما فعل التلميذ رايت، لكن فقط من أجل الإنسان في اتحاده مع نفسه. ففي روحه هو تكمُن أفكار المستقبل، إنه العبقري الذي سيمجِّد روحه في أبنيةٍ تُمثله وتُصوره طالما هي قائمة.

لا عجب إذن أن ثار الناس ضده، فلو كان الإنسان مسئولًا عن حُسن حظه، عن إنجازاته العظيمة، فهو مسئول أيضًا عن خطاياه، ولن يحصل على المغفرة إلا من نفسه. وهذا ما لم يستطِع الناس قبوله، على الأقل أيام سوليفان؛ فقد كان من الكثير عليهم أن تطالبهم بالتخلي عن الصورة التي كوَّنوها لأنفسهم «كأطفال الله»، وأن يقبلوا بلوغهم، ويتحملوا مسئوليتهم، والأصعب من كل هذا أن يدركوا أن الحياة هي الخلاص الوحيد الذي لا خلاص غيره. كان الأسهل عليهم أن ينكروا الرجل، كلماته وأعماله، وهو ما فعلوه، وكانت نظرة واحدة لضيعةِ بابسون كافية لأن أكتشف قدْر ما خسروه ذلك.

لم تكن جميلة، كانت عبارة عن مساحة وقوة وبنيان. فإلى جانب المنزل الرئيسي كانت هناك حظيرتان للجياد تمتدان مسافةً طويلة قريبًا من الأرض، إلى اليسار. ورغم أنهما تبدآن على الأرض بأعمدتهما الخلفية الغارقة في التراب، فقد كانتا جزءًا من الحركة العامة التي توِّجت أخيرًا في اندفاع المنزل الرئيسي المشرع إلى أعلى. وما كان بوسع العين أن تتوقَّف عند جانبٍ دون الآخر، فلا بد وأن تنتقل من الحظيرتين إلى المنزل، ومن المنزل إلى المدخل. لم تكن هناك حدائق أو شرفات تحيط بالأبنية، بل كان هناك شيء أشبه بمرجٍ عميق تتخلله أدغال من الأشجار والشجيرات، وكانت السقوف تسيطر على الفضاء، وتبدو جميعًا جزءًا من الحركة الواحدة الهائلة نحو الواجهة. لم تلهمني كثيرًا كما فعلت ضيعة كونلي بجمالها ورصانتها وتكاملها، لكنها اكتسحتني. وسمت بعيني وروحي بتحديها وقوَّتها. كانت تخيِّم بهيكلها مثل جوادٍ ضخم مرفوع الرأس، كأنما يوشك أن يرتفع بي إلى أعلى ما أشاء. وكان يمتد مشدودًا متوترًا كمقلاعٍ يريد أن يقذف بي إلى أبعدِ ما أستطيع. كانت مُخيفة، تحديًا مجسمًا نبع من أعماق الإنسان، وفي بُعدها عن الجمال كانت شيطانًا جموحًا، أحمرَ الوجه، باسمه يسوق الإنسان إلى آفاق عظيمة، وقد وعد بأن يعود به إلى المكان الذي جاء منه. ودوَّنت رسالتها المتأملة المدوية في كراستي بحروف كبيرة «لقد بقيت، أنت باقٍ، سوف نبقى ... ارتفع إلى مستوى مجدك العظيم».

عندما انتهيت من جولتي، دعتني الأم الرئيسة إلى الداخل، وقدَّمت لي بعضًا من الحَساء واللبن. كان المنزل من الداخل عاريًا من أي زُخرف، كي لا تتعرض الراهبات للغواية، لكن الجدران الداكنة من خشب الكابلي والتماثيل الدقيقة المنحوتة في طلاء السقف الأبيض، والنوافذ المرحة التي تتدفق منها أشعة الشمس في كل حجرة، كانت تُذكِّر المرء فجأة بأن الحياة تجربة بديعة.

سألتني الأم الرئيسة: «المكان جميل هنا، أليس كذلك؟ إنه يضعنا أمام الله في كل مجده. كم سنفتقده.»

قلت: «لكنه لم يقصد ذلك.»

قالت: «لماذا، مَن هذا الذي لم يقصد ذلك يا صغيري؟»

قلت: «الرجل الذي بنى هذا المكان ... لويس سوليفان. لقد كان يعنينا نحن بهذا المكان، وليس الله.»

ابتسمت الراهبة في خجل: «لا أعتقد أن هناك أهميةً لما كان يعنيه. المهم الآن هو ما تعنيه بالنسبة لنا.»

قلت: «كلا، هذا خطأ.» وقمت واقفًا.

سألتني الراهبة: «إلى أين أنت ذاهب؟»

لم أجِب، بل جريت من الغرفة إلى الرَّدهة ثم الخارج. كنت أبكي، ولم أكن أود أن يراني أحد. ذرفت دموع القهر من قبلُ أمام أناسٍ مثل هذه الراهبة، بُسطاء، لِطاف، طيبي القلب، لكنهم كالأحجار الصماء أمام أعمال سوليفان. لماذا هم عاجزون عن الفهم؟ لقد كان الأمر واضحًا للغاية، ناصعًا جليًّا، مصوَّرًا بقوة في بنائه … الذي كان يتبع من حيث الشكل روحًا مُحلِّقة سامية. وفكَّرت أن الناس ما كان بوسعهم أن يروا لأنهم لا يريدون، خشيةَ أن يغيِّر ما يرونه من حياتهم، ولو إلى الأفضل.

بعد هذا، وجدتني قادرًا على أن أكون رقيقًا مع الناس متفهمًا لهم. فلم أعُد أتوقَّع شيئًا من أحد. أدركت عبثَ أنْ تستحثَّ أحدًا على أن يرى أكثر أو يفعل أكثر، أو يكون شيئًا آخر غير ما هو كائن بالفعل. كما لو طالبت قليلًا من العُشب أن يصير بستانًا. وهكذا قدَّمت العون إلى أمي. وأصغيت في صبرٍ إلى أبي، وبدأت أُظهر احترامي لمدرِّسي. وظللت مع ذلك عاجزًا عن خداع أحد، فعندما كانوا يسألونني عما أفكِّر فيه، كنت أقول نفس الأشياء الغريبة التي اعتدت قولها. ولأني أصبحت «ولدًا طيبًا»، لم يَعُد أحد يحمل عليَّ بسبب الأشياء التي أومن بها.

والأغرب من هذا أني كنت أُعَد في المدرسة الثانوية غبيًّا ولكن حَسن القصد. لم تكن إجاباتي تُحسب صحيحة مطلقًا، وكانت غالبًا ما تُحير المسئولين عن منهاج الدراسة، لكنني كنت مؤدبًا في هذا الشأن بحيث كنت أحظى بدرجة «مقبول». ورفعوني إلى المستوى الذي يمكن أن أُوصف عنده بـ «متوسط»؛ لأن أحدًا لم يشأ أن يؤذي صبيًّا وديعًا مُسالِمًا كلُّ مشكلته أنه يخطئ دائمًا دون قصد. وكانت مس ريسك، عجوز المكتبة، ومستر دولف، مدرس الحساب، هما اللذان لم يخدعهما مظهري الجديد الذي كان نتيجةً لرغبتي المفاجئة في أن أترك الآخرين ينعمون بغبائهم.

فقد قال لي مستر دولف ذاتَ يوم ناصحًا: «روبي. إني أعرف أنك قادر على أحسنَ من هذا بكثير. لقد أُطلِعت على درجاتك في امتحانات القبول، ووجدتك نابغة حقًّا. فلماذا لا تبدو هكذا في الفصل؟»

قلت: «إنني أبذل ما في وسعي يا مستر دولف.» وهي الحقيقة.

فحدَّق في النافذة، وقال في كآبة: «حسنًا، إنه لعالم غريب.»

الفصل الثالث

في السنة النهائية صادفت فتاةً اسمها ماري بترسن، وهي شقراء نرويجية ذات ابتسامة دافئة وجسد ممشوق خفيف الحركة، وساقين جميلتين وقدمين رائعتين. ولا بد أنها قالت لي «هاي» عشر مرات قبل أن تلفت نظري، وفي أحد أيام الجُمع لحِقت بي وأنا أُغادر المدرسة وحدي كالعادة، وسألتني ما إذا كان بوسعها أن تسير معي. فقلت: «لماذا؟» ذلك لأني كنت أعلم أنها جميلة وبوسعها أن تسير مع مَن تشاء. فقالت: «لأني معجَبة بك يا روبي.» وابتسمت في طربٍ شديد أفقدني القدرة على الحركة. إنها تُعجَب بي؛ هكذا قلت لنفسي قبل أن أنسى، لكننا عندما سِرنا لم أستطِع أن أفكِّر في شيءٍ أقوله لها؛ فقد كانت مشاعري عنيفة ومفاجئة لدرجةٍ غصَّ بها حلقي. لم يكن هذا ليعنيها في شيء. فقد كانت تتوهَّج إلى جانبي مثل شجرة عيد الميلاد تستثير عقلي بثنائها الذي انهال عليَّ، ومسيرتنا، والعالم أجمع. كانت أول شيء حي أقابله ولا يسعني أن أسخر منه، لم يكن أمامي إلا أن أستسلم لذلك الفيض من الدهشة الذي أحدثته. ذكَّرتني بالجدول الذي يرغي ويزبد عندما ينحدر في شدة فوق الصخور أسفل جسر الخط الحديدي، وهكذا اكتفيت بأن أستمتع بتأمُّلها والإصغاء إليها. بل اشتريت لها ساندويتشًا حتى أتأملها وهي تأكل.

قالت: «أعتقد أن كلَّ فتاة تحتاج إلى فتًى. أليس كذلك؟ حسنًا، لماذا تنتظر الفتيات حتى يتقدم الصبية إليهن وعندئذٍ يخترن أفضلهم؟ هذا سخف. فربما وقعت الفتاة في فتًى غير ناضج، وهناك فتيان كثيرون لا تعمل عقولهم إلا إذا أصابتهم طوبة في رءوسهم؛ لهذا قررت ألا أرتبط بأحد هؤلاء طالما كان الأمر في استطاعتي. أريد فتًى عنيفًا كالصاروخ ينسف كل الشبان بليدي الحس، الذين يقصون شعورهم كالبحَّارة، يكتسحهم بألعابهم المضحكة.

فتًى مثيرًا بوسعه أن يقف على عقبيه ويقول الصدق دون أن يتلعثم، فما رأيك؟ ليس هناك فتيان هكذا يا روبي روي. على الفتاة أن تبحث وتوالي البحث حتى يسعدها الحظ حقًّا، وإلا انتهت بين أحضان واحد من الزواحف، وأصبح عليها أن تقول نعم يا سيدي، لا يا سيدي، لأبلهَ لا يستطيع حتى أن يتهجَّى كلمة قط، كيف يكون من أمرك لو كنت فتاة مثلي؟ ماذا تفعل؟ تقتل نفسك؟ صدِّقني إني فكرت في هذا، قلت إذا كان عليَّ أن أذهب إلى مباراةٍ أخرى في كرة السلة مع أحد ماضغي اللبان الذين يظنون أن الحياة تبدأ وتنتهي مع حركة الكرة، سوف أقطع عنقي ذات ليلة في الحمام وأنا أزيل شعر ساقي. لكني قرَّرت ألا أفعل. قلت لنفسي ابحثي حولك، أعني بحثًا حقيقيًّا، وربما أسعدكِ الحظ فوجدتِ شابًّا مختلفًا، عندئذٍ ألقي بنفسكِ عليه — إلا إذا كان قبيح الخِلقة، وأنت لست كذلك يا روبي — لكني لا أستطيع الانتظار طويلًا وإلا أُصبت بالجنون. فلا تظن إذن أني أُسدي إليك معروفًا بأن أتركك تبتاع لي هذا السندويتش؛ إذ الواقع أنك تنقذ حياتي.»

كل ما استطعت أن أقوله وأنا جالس أمامها أرقُبها وهي تقضِم لقمة: «أتعرفين أنكِ رائعة.»

فابتلعت لقمتها وابتسمت: «أعتقد أني جميلة للغاية. على الأقل هذا ما يقوله لي كل الفتيان.»

«من الغريب أن يكون هذا هو شعورك بالنسبة للآخرين؛ فهو شعوري أنا أيضًا. لا أعرف، لكن لا يبدو أنهم يهتمون بالأشياء الصحيحة. كأنما اختلط الأمر عليهم جميعًا، وكأنما تعقَّدت أمورهم بصورةٍ ما ولم يَعُد بوسعهم إصلاحها.» نظرت إليها، الجميلة، إلى وجهها الرقيق، وشعرها الأصفر الناعم الجميل ... وقد جمدت في مكانها تتطلع إليَّ، مصغية: «ولكنكِ تعرفين هذا أيضًا، أليس كذلك؟» وفجأة انطلقت أقول: «هل رأيتِ أبنية سوليفان أو رايت؟ سآخذك لتريها كلها، إني أعرف أماكنها، وأُراهن أنكِ ستُعجبين بها هي الأخرى.»

قطَّبت حاجبيها: «أوه، بودي أن أفعل، من أجلك. لكن ماذا لو لم أفهم؟ هل تكون صبورًا عليَّ وتحافظ على مودَّتك لي؟»

قلت: «لا تقلقي. سأروي لكِ كلَّ شيء عنها. وسوف تحبينها.»

ابتسمت: «أعرف أني سأفعل، لو فقط تحدثت إليَّ. أحب أن أسمعك تتحدث؛ لأن الكلمات لا تضيع منك مثلما يحدث لي، ولأنك تتحدث دائمًا عن أشياء هامة ومثيرة.»

قلت: «يا إلهي! لا تقولي هذا يا ماري. إنكِ رائعة.»

قالت: «أوه يا روبي، أنت لا تعرف كم يجعلني هذا سعيدة. الآن لست أشعر بذرةٍ من الأسف على أني اخترتك.»

وأخذتها إلى جسر الخط الحديدي، حيث بقعتي المفضَّلة التي أبقيتها سرًّا عن الجميع، وجلسنا، وبدأت أتكلم، وحكيت لها عن الأبنية والكتب والرجال المشهورين الذين قاموا بأشياءَ عظيمة وكيف أني أنا، روبي روي، سوف أبني أشياءَ عظيمة أيضًا، بل وأكتب عنها، حتى يأتي إليَّ الجميع طلبًا للأجوبة، وعندئذٍ سوف أساعدهم جميعًا بأن أذكر الحقيقة وأصنع أشياءَ جميلة للناس وأدفعهم إلى أن يكونوا عظماء مثلي.

قالت: «آمُل أن يستمعوا إليك يا روبي.» وكانت جالسة هناك، رقيقة وجميلة، وكاملة ... لا أكاد أصدِّق أني وجدتها.

قلت: «سوف يفعلون وأنا واثق من هذا.»

تأملت الجدول وهو يخر فوق الصخور على مقربة من أقدامنا، وشعرت ببهجة شديدة دفعتني إلى أن أروي لها شيئًا فكَّرت فيه ونحن في الطريق من المدرسة. «أتعرفين؟» واستطردتُ عندما هزَّت رأسها: «إنكِ سعيدة جدًّا، إنكِ تذكرينني بهذا الجدول، وهو الشيء الوحيد الذي أحببته عدا المباني، فلو أردت أن أُفاضل بينكما الآن ما أمكنني هذا.» لم أكن موفَّقًا فيما قلت، وصدمني وقع الإهانة. لكني فكَّرت أني أستطيع تلافي ما حدث بأن أريها الأشياء التي أحبها. لم تكن هناك من طريقة أخرى أمامي كي أصفَ لها شعوري نحوها ونحو الجدول، وأبنيتي، وكل شيء.

أخذتها أول الأمر إلى مبنى شركة كامبانا الذي أقامه رايت، والذي كان يقوم وحيدًا فوق حقل شاسع في الريف بين أورورا وإلجين وإلينوا. كانت الشركة تصنع عطورًا للسيدات؛ ولهذا كانت مباني إدارتها تُعبِّر عن رقةِ إنتاجها المرطِّب المضاد للعفونة، وترفع في خرسانة أرجوانية مثل إصبعٍ يشير إلى السماء بظفرٍ متقَن الطلاء، بينما تحيط بهذا البرج أبنيةٌ مسطَّحة عديدة في الشكل الدائري لراحة اليد. لم تكن هناك أية أطراف خشنة للمنظر؛ فقد كانت جميعًا خطوطًا محدَّدة في نعومةٍ توحي بالرحيق الرقيق الذي يندفع يوميًّا من أواني المصنع الضخمة إلى الزجاجات الوردية. وكان اختياري قد وقع على كامبانا لتكون الرؤيا الأولى التي تراها حبيبتي لأنها كانت تُذكرني بها، في توردها ورقَّتها، كأنها خارجة لتوها من الحمَّام ببشرة ناعمة متوهجة.

أحبَّت ماري المكان، وتآلفت على الفور مع ما ينطِق به من دقة الشكل الأنثوي وكماله. وقالت: «إنه يجعلني أشعر بأني نظيفة جدًّا. أوه يا روبي، كنت أظن أن المباني ليست إلا

أكوامًا من الحجارة وُضعت بغير نظام، وكان هذا يقلقني، ولكني أجد الأمر الآن مختلفًا. إنها حلوة وجميلة وليست خشنة المنظر على الإطلاق. إني لسعيدة.»

انتصبت واقفًا بجوارها، وأنا أتناول يدها. وقلت في أهمية: «إن الباني الماهر يستطيع أن يفعل كلَّ شيء على الوجه الصحيح. من القوي إلى الرقيق الحلو.» وفكَّرت لحظة: «لم أكن أفهم الجمال من قبل، لكني أعتقد أني أعرف الآن بعد أن قابلتك. فليس الجمال شيئًا يمكن أن يبتدعه الإنسان من تلقاء نفسه. إنما يجب أن يكون شيئًا يتذكَّره، شيئًا حلوًا ورقيقًا أعطته إياه امرأة. يسرني أنك أُعجبتِ به يا ماري، لكني سأبني لكِ يومًا ما، ما هو أجمل من هذا بكثير.»

عجبتُ لِما استولى عليَّ من شعورٍ بأني أستطيع الحديث مع ماري. ربما لِما بدا من استمتاعي بكلِّ ما أقول، أيًّا كان. كنت أذكر لها ما أفكِّر فيه، كما خطر لي دون أن أضطر إلى حمايتها أو تضليلها أو تجاهلها، كما كنت أفعل مع الأخريات. وربما كان السبب أيضًا، أنني خلالها كنت أستطيع أن أصغي لنفسي لأول مرة وأنا أتكلم وأعرف وقْع ما أقوله على مَن لم يفكر فيه مطلقًا من قبل، ويتلقاه كشيء جديد، ويتعيَّن عليه أن يتفهم مضمونه. وكلما أصغت ماري لي، شجَّعني هذا على أن أُحدِّثها بالمزيد.

فأقول: «خذي مثلًا حانوت هركي، هاكِ مثالًا كاملًا على القُبح المتعمَّد. بل إنه يعوق البيع، وأنتِ تعلمين كيف يثور العجوز، المتمسك بالقديم، ضد متجره لو تبيَّن هذا. فرغم أن المتجر يقع في ركنٍ بزاويةٍ قائمة، نراه قد شُيِّد على صورةِ مربع، وأُقحم عليه مدخل يمتد قرابة عشرين قدمًا، وشُيدت الجدران كلُّها من الزجاج بسقفٍ منخفض، وفي الداخل ليست هناك سوى مساحة فارغة حُشدت فيها الحاملات حيثما اتفق، ووُضع جهاز الصودا بعرض الحائط الخلفي، وخلْفه يقف هركي يحاول أن يبيع ما يكفي للإبقاء على عظمة العجوز. كل هذا يغطِّيه سقف واطئ تتدلى منه الأنوار. أما لو كان الأمر بيدي لأعددت كلَّ شيء بصورةٍ مخالفة؛ كنت أجعل المدخل في طرَف المثلث بلا باب أو زجاج — ما رأيكِ في هذا؟ — إنما أغلقه بحاجزٍ رفيع من هواء يهبُّ عبره بسرعةٍ لا تسمح للبرودة بالتسلل إلى الداخل. أما الناس فيدخلون بسهولة؛ إذ يسيرون ببساطة إلى الداخل دون أن يفتحوا بابًا أو أيَّ شيء. ثم أضع حامل الصودا على طول محيط المتجر، وبهذا يجلس الناس مستندين بظهورهم إلى الحائط، مواجهين بذلك كافة أنحاء المتجر. وأمامهم حاملٌ مُضاء تطفو فوقه كل بضاعة هركي، معروضة أمام الزبائن، الذين يديرون مؤشرًا على مقياسٍ أمامهم ويضغطون زرًّا، فتُوضع هذه الأشياء في لفافةٍ عند المدخل يحملها الزبائن عندما

ينصرفون. ويكون بوسع هركي أن يدير العملية كلها دون معونةٍ من أحد وهو جالس أمام لوحة تحكُّم في وسط المتجر.»

وأرسم لها فكرةً كلُّها في كراستي، بالمواسير، والكهرباء، والتدفئة، مصممًا المكان من الداخل في مسقط رأسي، بحيث تراه ماري كلَّه أمامها على الورق. عندئذٍ تقول ماري بعد أن تعطيني انتباهها الشديد بعض الوقت: «تذكَّرت الآن. يجب أن أشتري أحمرَ شفاه. دعنا نذهب إلى متجر هركي.» ونسير متشابكي الأيدي، وقد اكتملت صورة متجر هركي الجديد في رأسي حتى لا أنساها أبدًا. بينما ماري تفكِّر في اللون الذي ستختاره لأحمر شفاهها.

كنت أشعر في بعض الأحيان أن ماري لا تعبأ بأبنيتي وأحلامي، وأنها تتظاهر فقط بالإصغاء إليَّ. لكني عندما أتَّهمها بذلك، تواجهني على الفور بحبها، وتبتسم في وجهي، وهي تميل برأسها وتقول في خشونة: «إنني أحب فقط أن أُصغي إليك يا روبي؛ لأني أعتقد أنك رائع، وليس بوسعي أن أتخيَّل ما ستقوله في اللحظة التالية. إني لأعتقد أنك أذكى مَن عرفت من الشُّبان في حياتي، لكني لا يجب أن أكون في مستوى ذكائك، فكلُّ ما أستطيعه هو أن أُصغي دون تعليق؛ لأني لو تكلمت سأبدو غبية وستعتقد على الفور أني لا أفهم، بينما أنا أفهم حقيقة؛ على الأقل هذا ما أظنه. إنني أفهم أنك على حق، وهذا هو كلُّ ما يتعين عليَّ أن أفكِّر فيه حقيقة، وهذا ما يجعل وجودي معك رائعًا للغاية. فليس عليَّ أن أفكِّر في أي شيء هام، واقعي، كلُّ ما عليَّ هو أن أستمع. وهذا هو ما جذبني إليك في المقام الأول يا روبي، وهو ما يجعلني سعيدة جدًّا الآن. كنت دائمًا أجد نفسي مضطرة للتفكير فيما يقوله الفتيان لأني لم أكن أصدِّقهم، ولا أثق بهم ... هل تفهم ما أعني؟ لكني أثق بك يا روبي، وليس من باعثٍ على القلق بعد الآن. عندما نتحدث عن مبانيك، تتملكني القشعريرة، أوه، لا لأني أحبها كثيرًا، ولكن لأنك تفعل وتبدو شديد الثقة بحيث لا أضطر حتى للتفكير في شأنها ... فقط أفكِّر فيك، وفي قوَّتك وثقتك ومهارتك ومعرفتك وجرأتك، وكل شيء.

لماذا يا روبي روي، كيف تشكُّ في فتاةٍ يهزها، كما هو واضح، كلُّ صوت يصدر من فمك حتى عندما تُصفر؟ يجب أن تتعلم كيف تؤمن بي أيضًا، يا روبي، نصف إيماني بك فقط. يومًا ما سوف نتزوج وسيكون لدينا ثلاثة أولاد وأربع بنات، ومنزل كبير تبنيه لنا، وستسافر في كل مكان تبني أروع الأشياء لجميع الناس، ويجب أن يستقر رأيك بشأني، يا روبي، قبل أن يحدث كل هذا، وإلا وقعنا في ورطةٍ شنعاء؛ لأن الأطفال يعرفون على

الفور عندما يحدث خلاف بين الأبوين ويؤذيهم هذا، وأنت لا تريد هذا، أنا أعرف، والله يعلم أني لا أريده أيضًا، ولهذا يجب أن نسوي كل شيء قبل أن يحدث هذا بوقت طويل.»

وعندما تنتهي ماري من إحدى الأبنية العالية المهتزة التي تشيِّدها للمستقبل، يتقلَّص وجهي كلُّه من عذاب محاولتي متابعة تخيلاتها الضالة، ثم أتخلص فجأةً من كل شكوكي ضاحكًا، وتضحك هي أيضًا معي، وتأخذ يدي وتأرجحها، ثم تضع ذراعي حول خَصرها وتُشبك أصابعها بأصابعي، وتهِزُّ في وجهي، وتقول شيئًا من هذا القبيل: «إني لجد سعيدة يا روبي. وأتمنى أن يكون هذا شعورك أيضًا.»

فتتدافع كلماتي لتؤكد لها بهجتي، وسرعان ما أصدِّق الأمر أنا نفسي.

كانت تبدو لي دائمًا جِد غريبة. فعندما كنا نتبادل الحب مستمتعين بقبلاتنا والتصاق جسدينا تحت الجسر أو فوق شاطئ معشوشب، أو في سيارة أبويَّ في أمسيات الجُمَع بعد أن نعود من السينما، لم يكن هناك خجل أو خوف من جانبها، وحين فكَّرت في ذلك، ونادرًا ما كان هذا يحدث، وجدت نفسي مرغمًا على أن أعترف بأني أنا الذي كنت عادةً أتوقَّف في منتصف الطريق، فعندما كنت أُقبِّلها كانت تُقبِّلني بدورها، وإذا ما داعبتها قوَّست ظهرها وضغطت بصدرها في يدي وأغرقتني بقبلاتها. وأدركت أنني يجب أن أسيطر على نفسي، وعندما كنت أتوقَّف لم تكن تفعل شيئًا سوى أن تقبلني من جديد وتقول: «أوه يا روبي، كم أحبك!» ثم تضيف: «وإني لأثق بك من كل قلبي.» كيف إذن لا أكون عاقلًا عندما تثق فيَّ بهذه الصورة؟ كان لا بد وأن أكون جديرًا بثقتها؛ لهذا كنت أتوقَّف، وعندئذٍ نتحدث، ورأسها معتمد على كتفي، عن كل الأشياء الجميلة التي سأحققها في المستقبل.

كنت أقول: «إن المدن شديدة القبح، ولسوف أحوِّلها إلى أشياءَ جميلة، حتى تكون جديرة بأن تسيري في أنحائها، سوف تكون هناك منتزهات، وبحيرات، وممرات عريضة مثل الشوارع، وشوارع لا تُرى ولا تؤذي أحدًا ولا يُسمع لها صوت، وسوف تكون هناك أضواء في كل مكان حتى يستمتع الناس بالأشجار والأسيجة والزهور في الليل بعدما ينتهون من أعمالهم. ولن تكون المباني قبيحة مضحكة بل جميلة، تتحد جميعًا بالعراء في أشكال دائرية عظيمة تسمح بدخول الشمس والهواء والروائح، وصوت المياه المندفعة. سوف ترين. سوف يبدو كل شيء بهيجًا يجعلك تضحكين وتستمعين به أينما ذهبتِ، وسوف تتحدث جميعًا إليكِ، تستحثك ... سوف تكون كلُّها، بل وكلُّ شيء آخر، من أجلك أنتِ.»

عندئذٍ تضحك وتمسح على ساعدي برأسها وتجيب: «وسأحمل الأطفال إلى النافذة وأقول لهم: انظروا انظروا لكل هذا، لقد صنعه أبوكم دون أخطاء، وإنكم لأسعد الصبية حظًّا في هذا العالم؛ لأن لكم مثلَ هذا الأب. ورغم أنهم لم يكفُّوا عن البكاء لأن الشمس شديدة السطوح، أو لأنهم جوعى، فسوف أعرف أنهم يدركون قدْر سعادتنا وفخرنا بأن نعيش في مبانيك وننظر إليها وكل شيء. إنها السعادة الحقة.»

عندما تقول كهذا، أود، من أجلها، لو أندفع إلى منزلي وأعكف على الدراسة، أُضيء مصباحي وأرسم، وأبذل جهدي لتحقق كل شيء بسرعة، أود لو أبدأ في نفس الليلة، وأعمل حتى يتم كل شيء ... وعندئذٍ أركن إلى الصمت وقد امتلأ رأسي بصورِ ما سيكون، حتى تنبِّهني قائلة إنها يجب أن تعود إلى منزلها. وأعود إلى منزلي بعد ذلك، فأصعد الدَّرج إلى حجرتي حيث أجلس بالساعات أفكِّر في صمت، وأحيانًا أعمل طول الليل، أرسم أشكالًا خيالية، وأضع تفاصيل مدينتي، حتى يبزغ الضوء فأخلع ملابسي بسرعة وأرتمي على فراشي لأحصل على ساعات قليلة من النوم قبل موعد المدرسة. لم أحدِّثها عن هذا؛ لأني لم أكن أدرك ما به من غرابة. فلم يكن بوسعي أن أنام بعد أن أبوح لها بعهدي؛ إذ أشعر بأنني يجب أن أعمل على تحقيقه بأسرعِ ما يمكن، كأنما كان هذا الشعور الطاغي يزيل كلَّ تعب أو تفكير في النوم. وفي بعض الأحيان، كنت أقضي السبت التالي لأمسيتي معها دون طعام. فقد أذهب إلى المكتبة بحثًا عن شيء، وإذا بي قد انصرفت إلى القراءة، ثم أعود إلى الرسم في حجرتي المغلقة، وهكذا يمر اليوم دون أن أشعر.

ضحِكت مني ماري مرة قائلة: «روبي روي، لماذا تفعل كل شيء بهذا الاندفاع. يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنك تعتقد أنك ستموت غدًا.»

أجبتها في جدية: «هذا ما أخشاه. تصوري مثلًا أن سيارة يمكن أن تفاجئني غدًا عند ناصية شارع وتقضي عليَّ، ولا تعود لدي فرصة لأبني شيئًا. لست أعرف كم لديَّ من الوقت، لكنه لن يكفيني مهما كان ... عشر سنوات أو عشرون أو ثلاثون أو حتى خمسون. لست أملك ما يكفي من وقتٍ الآن لأقوم بما أريده، فما بالك عندما أبدأ العمل.»

فتساءلت: «أي عمل؟»

«العمارة بالطبع ... فماذا غيرها؟»

«أوه، أجل. هذا حق أظن أنك ذكرت مرةً أنك مهتم ببناء الأشياء.» وقبل أن أثور، ضحِكت وطمأنتني قائلة: «أوه يا روبي، لا تغضب. لقد كنت أمزح. ولا تقلق؛ لأني سأعمل على أن يتوفر لك قدْر كبير من الوقت. سوف أحشوك بالطعام الطيب، وأحبك، وأُدبِّر

أمور الأسرة كلها بيدٍ حديدية وبكفاءة بحيث لا يعكِّر عليك شيء صفوَ عملك، وسأعطيك عددًا كبيرًا من الأبناء السِّمان الضاحكين الذين سيصبحون عونًا كبيرًا لك عندما يكبَرون، فيحملون قِطَع الطوب، ويقلِّمون الأقلام، ويقومون لك بكل شيء.»

ضحِكت أنا الآخر، وهدأت ثائرتي كما أرادتني. كانت دائمًا تقضي على مخاوفي ومتاعبي عندما تؤكد أنها سرعان ما ستتبدَّد، وأنها ستكون عونًا كبيرًا في القضاء عليها، وشد ما كانت جميلة في عيني، تخلُب لبي بحيويتها، وإيماءاتها، والتغيُّر السريع فيها يُعبِّر عنه وجهُها من معانٍ، وتسكن من روعي بكل ما يجري على لسانها. الشيء الوحيد الذي كنت أفضِّله على العمل، هو أن أكون مع ماري، فقط لأرقبها، وأصغي إليها، وأستمتع بكل سحرها الطبيعي. كانت تُذهلني وتثير كل انتباهي، كأنما كنت أتطلع إلى أجمل الأشكال والألوان مكبرة، وكانت تحبني، وهي فكرة لم أعتدْ عليها مطلقًا؛ فقد كان يخطر لي أحيانًا أنها قد تحب شخصًا آخر، شخصًا أعظم مني.

ومن ماري استوحيت الفكرةَ الأساسية التي شكَّلت أفكاري وعملي؛ فقد طالما تساءلت: لماذا لم يكن هناك مبنًى واحد في جمالها؟ وذات ليلة وأنا وحيد في حجرتي، اكتشفت السبب. كانت ماري دائمًا تتحدَّث وهي تفعل شيئًا، كانت تتحرَّك من وضعٍ لآخر، وكان وجهُها رغم جماله الذي يجعلني أحبس أنفاسي يتغير دائمًا بسرعة من عاطفة إلى أخرى. كانت ماري تتحرك، تتغير، تنتقل، وكانت المباني ساكنة بأحجارها. فكَّرت في الأشجار والحيوانات وفي الطيور والأسماك، بل والأنهار. كل شيء يتحرك ويتغير، فيما عدا الحجر ... لماذا إذن لا ننبذ الصخر والخشب الميت وغيره من المواد، ونصنع بناء يتحرك ويتغير؟ لكن كيف؟ ماذا نملك من المواد المرنة الطيعة؟ المطاط والبلاستيك والورق ... بل إن الحجر نفسه يمكن أن يتحرك إذا دفعته قوةٌ ما قليلة التكاليف. وخلصت من ذلك بأن كل المباني يجب أن تكون ذات حركة كافية، نظام للتغيُّر مُشيَّد داخلها، ومبدأ جديد للتحول يضاف إليها. وبعبارة أخرى، إن البناء يجب أن يكون أكثر من مجرد شكلٍ نراه، وإنما يكون نظامًا من الأشكال المتغيرة تتيح له أن يتحوَّل إلى شيء آخر، ثم شيء ثالث من جديد، وهكذا، وهذا التحوُّل الدائري سيجعل المباني أكثر قُربًا من الحياة، حقيقية، أكثر إثارة، وأكثر فائدة، من أي شيء آخر بناه الإنسان في الماضي. كدت أنفجر بما أثاره فيَّ هذا الحلم من انفعال. وكان من العسير أن أصبر حتى أروي الأمر كله لماري.

سألتني: «لكن ماذا ستفعل كل هذه المباني؟ هل ستجري فوق عجلات أو على أقدام، أم أن الجدران ستمر كالفيلم أمام الكاميرا السينمائية، أما ماذا؟ هل سيرتفع السقف ثم ينخفض أم يدور؟» وضحكت وأضافت: «لا أستطيع أن أتخيل الفكرة ...»

أجبتها: «لست أعلم بعدُ يا ماري. لكن فكِّري في الأمر. تدبري الفكرة. أليست مذهلة؟ لماذا لم يفكر فيها أحد من قبل؟ لماذا تكون كل منازلنا ومبانينا ساكنة؟ لماذا لا تشرف على عدة مناظر بدلًا من منظر واحد؟ لماذا تكون واحدة بدلًا من أن تتعدد وتتضاعف؟ فكري في معنى هذا. لسوف يتغير كل شيء ... مُدن بكاملها تتحرك. لماذا لم يتم هذا من قبل؟ إن الأمر في منتهى البساطة.»

قالت: «لم يكن روبي روي أوريلي ليفكر فيه. كل شيء يصبح بسيطًا متى فكر فيه المرء. أهناك ما هو أبسط من العجلة أو الدبوس؟»

قلت: «هذا حقٌّ، خذي بساطة القوس والكابولي. ماري، ألا ترين، لقد وجدتها.»

ابتسمت: «حسنًا، يسرُّني أنك فعلت، لكن ألست تنسى أنك وعدتني بكوب من السَّحلب؟»

أردت أن أحتفظ بماري معي بقيةَ حياتي، فتكون بجواري دائمًا وأنا أتعلم وأعمل، لكنني أدركت بصورةٍ ما أنه يتعين عليَّ أن أنتهي من الكلية أولًا. كنت أحتاج إلى التدريب التكتيكي، وما كان باستطاعتي أن أُدبِّر أموري بنفسي ولو حصلت على منحة دراسية، فضلًا عن إعالة أسرة أيضًا. لكنني عندما قلت لماري إن زواجنا قد يتأجل أربع سنوات هزَّت رأسها في حزم.

قالت: «أوه كلَّا، لن أنتظر. مَن غيري سيعمل ويعود للمنزل بأجره؟ أنت بالتأكيد لا يمكنك أن تعمل كثيرًا. إلى جانب عبء المحاضرات في الكلية؛ ولهذا وضعت خطةً كاملة لكل شيء. لن يتأجل زواجنا، لكنَّ أسرتنا هي التي ستؤجل. بوسعنا أن نحصل على أحد البيوت الصغيرة شبه الجاهزة التي تُقام على أراضي الجامعات للجنود القدامى، وسوف أجد عملًا، وبهذا يصبح لدينا قليل من المال، وسنتزوج، وسيكون بوسعك أن تواصل الدراسة. لست أرى من سبيل آخر.»

قلت: «لكن ماذا بشأنك أنتِ يا ماري، ألا تريدين الذَّهاب إلى المدرسة؟ ليس بوسعي أن أطلب منكِ التخلي عن دراستك والعمل في مكان حقير أو شيء من هذا القبيل، لكي أتمكَّن من شقِّ طريقي.»

أجابت: «أنت المدرسة الوحيدة التي أحتاجها. فلست أفهم شيئًا من كل تلك الكتب وهؤلاء الشيوخ المبتذلين الذين يتجشئون وهم يتحدثون عن العقائد، لقد تعبتُ من الكلام، كلام، كلام، وأريد أن أساعدك لتفعل شيئًا. هذا هو ما نحتاج إليه، رجال يفعلون شيئًا بدلًا من الاكتفاء بالحديث. لقد جُن جنون العالم، وليست هناك فائدة من الحديث.» ابتسمت،

وذكرتني ببطء: «ليس بوسعي أنا أن أفعل شيئًا، وأنا أعلم هذا، لكن بوسعي أن أفعل الكثير من خلالك، إذا ما أتحت لي الفرصة. إني لأفضل العمل في حانوت صغير لو عرفت أن هذا يساعدك ويساعدنا على أن نُحقق ما نريد، أُفضل هذا على أن أجلس في فصلٍ قديم متعفن لأتحمل أبلهَ أبيضَ الشعر لا يعرف عما يتحدث. على أية حال، يجب ألا تُشغل بالك دائمًا بما يقدمه لك الآخرون من عون واجب حتى تبلغ أهدافك، فلا بد أن تتعلم كيف تقبل المساعدة إن كنت حقًّا تنوي أن تصنع شيئًا. لن يكون بإمكانك أن تنطلق هكذا وتُشيِّد هذه المباني الكبيرة بمفردك، أتستطيع؟ أظنك ستتفرج على عامل بناء وتسأله لماذا يضع الطوب، بدلًا من الذهاب إلى الكلية؟ بالطبع لن تفعل، ويجب أن تشعر بالسعادة؛ لأن آخرين يريدون مساعدتك يا روبي، وإني لأكثرهم رغبةً في ذلك. والحقيقة أني بذلك أساعد نفسي أيضًا. لأني أريد أن أقتنصك الآن، بينما أعرف أنك تحبني، وبوسعي أن أنجب أطفالًا بعد أن أعمل بضع سنوات، وبعد سنوات قليلة أخرى سيكبَر الأطفال وأدور في أنحاء البيت الكبير الذي ستشيده لنا مُحدثةً جلبة وضوضاء، ولن يكون لديَّ ما أفعله سوى لعب البريدج والثرثرة مع الدجاجات المتوسطة العمر ... لن تعرف ماذا يعني وقت الفراغ حقيقة حتى تشاهد سيدة متوسطة العمر تنظِّف منزلها ثلاث مرات في اليوم لا لشيء إلا لتجد ما يشغلها. على أية حال، أنا أريد أن أتزوج فورًا؛ لأني أخاف أن تُغيِّر رأيك. قُل لي أنك لن تتغير يا روبي وأنك ما زلت تحبني.»

«بالطبع أحبك يا ماري، وأنتِ تعرفين هذا.»

فقالت: «حسنًا، يسرني أن الأمر قد حُسم.»

«ما الذي حُسم؟»

قالت: «روبي ... لا أريد أن نقضي الليلةَ كلها في هذا الحديث. إنني أعرف طباعك، فلا بد لك من وقتٍ تفكِّر فيه في الأمور وفي النهاية دائمًا تفعل ما هو صواب؛ ولهذا فأنا أريدك فقط أن تفكِّر في الأمر وتخبرني عندما تنتهي إلى قرار؛ لأن أمامي مهامَّ كثيرة؛ فعليَّ أن أُحدد اليوم، وأن أُخبر أهلي، وأبتاع ثوبًا، وأُرتِّب ما يتعلق بالكنيسة، وإعلان النبأ، وقائمة المدعوين. ربما تظن أن الزواج ليس سوى حركة من المعصم. حسنًا، دعني أقول لك إنه يتطلب عملًا كثيرًا، لكن لا تُزعَج؛ فسوف أتولى أمرَ كل شيء، وكلُّ ما عليك هو أن تكون موجودًا.»

قررت أن أستجيب لما طلبته مني وهو أن أفكِّر في الأمر. فهذا على الأقل هو واجبي نحوها. لكن الفكرة كما صورتها لي، بدت جيدة، وكنت أريد أن أتزوجها على أية حال.

وسرعان ما وجدتني قد انتهيت من المدرسة الثانوية، وتخرَّجت بترتيب مائة وثمانية وتسعين في فصلٍ تعداده أربعمائة، وهو ما كان من حُسن الحظ. إذ لو كان ترتيبي أقل من ذلك بثلاث درجات لفقدت حق الالتحاق بالكلية. وكان عليَّ أن أؤدي اختباراتٍ للقبول لأثبت صلاحيتي لاستيعاب التعليم المتقدم. وأرسلت نتائج هذه الاختبارات إلى مستر دولف، وهو المدرس الذي كان يمدني دائمًا بالنُّصح، وقد أرفقت بها مذكرة تقول إنها أعلى نتائج حصل عليها أحد في إقليمنا، لكنها لا تتفق ودرجاتي المدرسية أو التقرير الذي بعث به المدرسون المختلفون عن شخصيتي. ورد مستر دولف عليهم مؤكدًا للكلية أنه لم يحدث خداعٌ ما، وأنني في الواقع قد أنجزت كل الاختبارات في نصف المدة المحدَّدة، وأنني طالب نابغ، وأنبغ مَن عرف مستر دولف من الطلبة في ميدان الرياضيات. وردت الكلية بخطابٍ موجز ذكرت فيه أنها قرَّرت صلاحيتي للدراسة بها، لكني سأوضع تحت الاختبار بسبب درجاتي. أما الطلب الذي تقدَّمت به للحصول على منحة دراسية فقد رُفض.

سألت مستر دولف: «لكن كيف سأذهب دون منحة دراسية؟»

وتنهَّد ناصحي في عدم ارتياح: «حسنًا، بوسع أهلك أن يساعدوك قليلًا، ويمكنك أن تعمل ... لكني أظن أن هذا لن يكفي.»

فكَّرت لحظة ... ثم قلت: «ماري وأنا سنتزوج، وسوف تعمل هي الأخرى.»

ارتجف مستر دولف: «ألا تدرك يا روبي أنك لو تزوجت في هذه السن فلن تكمل دراستك الجامعية أبدًا؟»

قلت: «كلَّا. لا أدرك ذلك؛ فالأمر يبدو لي على العكس.»

طوَّح مستر دولف بذراعيه في الهواء: «حسنًا، مؤكَّد أني لا أستطيع منْعك، لكني سأذكر لوالديك أنني ضد زواجك.»

وعندما علم أبواي أن ماري وأنا نريد الزواج، وأن مستر دولف يعتقد أن في هذا نهاية لمستقبلي، منعاني من رؤية ماري. واتصلا بوالديها اللذين فزعا بدورهما، خاصةً عندما سمعا أن ماري تنوي العمل بدلًا من الالتحاق بالجامعة، وقرَّرا ترحيلها إلى عمةٍ لها في ميلواكي حتى تكون في مأمن ذلك الصيف قبل أن تُرسل بعد ذلك بعيدًا إلى مدرسة في كاليفورنيا.

سمعت بهذه الأنباء لأول مرة من خطابٍ أرسلته ماري إليَّ عن طريق أحد الأصدقاء، وأعطتني فيه العنوان الذي تقيم فيه، واستحثتني أن أزورها بأسرعِ ما أستطيع على أن أقدِّم نفسي لعمتِها باسم «خرانكي بومجارتنر»؛ ذلك أن العمة لا يعنيها شيء قدْر أن تبدو

متسامحة، وماري تعتقد أن الاسم اليهودي الذي اختارته لي سيوجِّه اهتمام العمة ولا شك إلى إبراز تسامحها وبُعدها عن التعصُّب، فلا تشكُّ في أني قد أكون الصبي الذي حذَّرها منه أبوا ماري.

ونصحتني ماري: «حاول أن تبدو مُغبَّرًا»، ثم وقَّعت الورقة في حزم: «مع حبي كلِّه إلى الأبد.»

وفي صباح السبت التالي، كنت أقف بشعري الأحمر، ووجهي الذي يغطيه النمش، وسيارتي الفورد العتيقة، من طراز ١٩٣٨، التي ابتعتها بخمسين دولارًا، أمام منزل عمة ماري، أشكو للعجوز من أن السيارة التي لم أدفع فيها سوى خمسين دولارًا «... تُكلفني مائة وخمسين كلَّ سنة، قيمة التأمين». وما كان بوسعي أن أعرف إن كنت أقنعتها بذلك بيهوديتي، لكنها تركت ماري تخرج معي للسباحة بعد ظهر ذلك اليوم، ولم توجِّه إليَّ سؤالًا واحدًا؛ فأدركت أنها وثقت بي، وهذا ما كنا نبغيه أنا وماري.

هتفت بي ماري وهي تُلوِّح بمنشفتها: «فرانكي ... دعنا نذهب. هناك ما أريد أن أتناساه وأود أن ألهو قليلًا.» وبينما كنا نغادر المنزل نحن الاثنين، وقفت العمة في مدخله وعلى فمها ابتسامة خفيفة ذات مغزًى، وقالت: «لا تعبثي بالوقت يا ماري، لكن احذري المياه.»

لكننا لم نذهب للسباحة. فقد وضعنا أردية الاستحمام في مقعد السيارة الخلفي، كما دبَّرت ماري، وانطلقنا على طول شاطئ بحيرة ميتشيجان إلى كراون بوينت إنديانا، حيث يستطيع مَن لم يتجاوزوا الثمانية عشر أن يتزوجوا دون موافقة آبائهم.

قالت ماري وهي تنكمش ملتصقة بي ونحن نمر بشيكاغو: «هل أنت خائف يا روبي؟»

كذبت: «كلَّا، لست خائفًا؛ فأنا أعرف أن ما نفعله هو الصواب.»

قالت: «لسوف أحبك دائمًا يا روبي.»

الفصل الرابع

خلال العامين اللذين عشنا فيهما، ماري وأنا، في أوربانا بولاية إيلينوي، التحقتُ بجامعة الولاية، بينما اشتغلت ماري في أحد المصانع المحلية، حيث كانت تقوم بتعبئة الموتورات الصغيرة في صناديق. كنت أُساهم بدوري في دخلنا، ببعض المال الإضافي الذي أربحه في تفريغ السيارات المحملة بالورق المقوَّى لمصنع كرتون، وأحيانًا من بعض أعمال الرسم والتصميم. لكني كنت أقضي أغلب الوقت في الدراسة، أعمل في مبانٍ لا توجد إلا في رأسي فقط، أستخلص من مبادئ الهندسة أفكارًا إنشائية مُرعبة لا أرى وجهًا لتطبيقها، وأخلق أشياء جميلة لا يمكن أن ترى النور، وأحب ماري بكل قلبي.

لم يكن لنا أصدقاء في ذلك الحين، رغم أننا كثيرًا ما كنا نخدع أنفسنا، فنظن أننا وجدنا زوجين يدركان ما يحيط بهما من قُبح، أو نشعر، لبعض الوقت، بروحٍ قرينة لروحينا في أحد الأشخاص، لكننا كنا نضطر دائمًا لأن ننحِّي خيالاتنا جانبًا، ونواجه تفكير «أصدقائنا» على حقيقته. كان رضاهم عن المناظر التي لا تُحتمل يُصيبنا، ماري وأنا، بصدمة، فننهي علاقتنا بهم، ولما كنا لا نحتمل علاقات الصداقة السطحية، فقد انكمشنا مرة بعد مرة، في عُزلة صارمة، لا نرى أحدًا، ولا نتحدث إلى أحد، ولا يفهمنا أحد، نرفض الجميع، ويرفضوننا، حتى تعلمنا سريعًا كيف نستمتع بحرية الحياة والضحك والحب وحدنا في عالم غير صديق.

وفي العطلات الأسبوعية، كنا نحمل طعامًا خفيفًا وننطلق إلى الريف، أو الغابة، أو نقتفي أثر نهر، ثم نجلس في الشمس، نستمتع بالأشجار والعُشب والسماء الزرقاء المتوهِّجة، وكانت تلك هي متعتنا الوحيدة فضلًا عن أنفسنا وعن عملي. وقالت ماري مرة ضاحكة مني: «إن السُّحب تتحرك، فلِمَ لا تصنع بناء من السحاب، وتطلقه مثل سفن الفضاء فيرتفع عاليًا وسط الدخان؟ إن الجميع على ما أعتقد، يودون لو يخطُون بصورةٍ

ما تلك الخطوات الذهبية التي تُحلِّق بهم عاليًا ولا يشم أحدهم بعد ذلك أبدًا رائحة إبط الآخر.»

قلت: «ربما أمكن ذلك … شيءٌ ما مثل مروحة طاحونة الهواء تجلب رياحًا كفيلة بأن ترفع منزلًا مستديرَ القاعدة، يدور في بُطء مثل الطبيعة، وفي الداخل أُسرة تجد نفسها أمام مناظرَ متغيرة من قمم الأشجار والأنهار التي تتلألأ تحتها. وفي الليل نهبط لنبتاع مؤنتنا ونتسلل عائدين بها قبل أن تشعر بنا الحكومة، أو قبل أن يتمكن الغوغاء من مهاجمتنا.»

«لكننا سنكون ذوي رحمة وشفقة، ونرأف بالحلاليف التي تحتنا، ونُعنى بأمرهم كما كانت تأمر الوصايا العشر، وكما كان يفعل المسيح، وربما قمنا ببضع معجزات أخرى، وبالطبع سنكون على حذر حتى لا يكون مصيرنا الصَّلب.»

ضحكت وأنا أعض قطعة من جذع شجرة أخضر: «أخشى ألا يكون هذا ممكنًا؛ فسرعان ما سيضعنا الناس في مصافِّ الآلهة ثم ينادون بأننا مذنبون لأننا أفضل منهم. وسيُضطرون لإسقاطنا، ويتهموننا بالتفوق، ثم يُوبخوننا بشدة؛ لأننا لم نتمكن من الفِرار بوسيلة سحرية. وفي النهاية يخيب أملهم فينا عندما يتبينون أننا بشَر مثلهم، ويضطرون إلى إخفاء الحقيقة، بقتلنا، ثم ينشرون الأساطير عن جُرأتنا وبسالتنا ويقولون إنه لا أملَ لأي كائن بشري آخر في أن يحذو حذونا.»

قبَّلتني، وأوعزت إليَّ أن أحتضنها فوق العشب، وهكذا تبادلنا الحب بسعادة في العراء، وقد أشعرتنا الشمس بضآلة حجمينا كما أشعرتنا بكمالنا، وذكَّرتنا الروائح وزقزقة الطيور بأننا جزء من شيء بالغ القِدم، أكثر جبروتًا وروعة من الجنس البشري. قالت: «لشد ما أحبك يا روبي.» واحتضنت يدي بين يديها اللتين أصابتهما المحركات بالرضوض في مفاصل الأصابع.

قلت: «أعبدك.» وأحطت ردفيها بيدي اللتين أصبحتا على قدرٍ كبير من المهارة لم يُتح لهما أن تصنعا الكثير: «أنت أول شيء جميل لم يُرسم قبل خلقه، أراه في حياتي … لا بد أنك حُلم مهندس إلهي.»

«وما هي يا روبي العزيز الوظيفة التي يخدمها شكلي؟»

«الحب؟»

قالت: «كلَّا.»

«الجمال؟»

«كلَّا، كلَّا.»

«ماذا؟»

«أنا لك يا روبي.»

عندئذٍ ساد صمت الشاطئ المعشوشب، إلا من تنهداتنا وحركاتنا، حتى هدأنا تمامًا، وتحولنا إلى رقتنا الأولى، نتبادل القليل من الكلمات، يحكي كلٌّ منا عن الأشياء الرائعة التي سنحققها؛ منزل وأسرة كبيرة سعيدة، وأكوام عالية من الأحجار أشكِّلها في مدن كاملة رائعة ونافعة.

قالت: «هناك شيء واحد أبغيه.» وعندما سألتها أضافت: «أريدك أن تكون سعيدًا.»

استدرتُ بعيدًا قبل أن ترى حزني. فكَّرت أن أملها سيخيب بالتأكيد؛ لأنني أعرف أنني لن أكون سعيدًا أبدًا إلا إذا أعدت بناء كل شيء، وهو أمرٌ مستحيل. وحتى لو سُمح لي بأن أحقق كلَّ ما أستطيع في حدود طاقتي البشرية، سيتبقى الكثير دون أن يتحقق، ولقد رأيت من المجتمع وأنا صبي، ثم شاب في المدرسة، ما يكفي لأعرف أنه يواجه بالشر كلَّ تغيير، وكلَّ مَن يقترح أفكارًا جديدة.

فمنذ كنت في المدرسة بدأت أشعر بالمعارضة التي تواجه معتقداتي. كنت أنتظر من المدرسة أن تعلمني كيف أفعل ما أريد، وبدلًا من ذلك كان المدرسون جميعًا يصرون على أن يعلموني كيف أفعل ما يريدونه هم، ولا شيء عداه، ما تم تحقيقه من قبل لا ما كنت أحلم به. كم من ليالٍ قضيتها ساهرًا أبحث في أنحاء نفسي عن إجابات لمشاكلي، بينما كنت أثناء النهار كالببغاء، أعطي أجوبة لمشاكلَ فكَّر فيها شخص غيري ولا علاقة بينها وبيني أو بين عملي. حتى في الحساب والهندسة أو الطبيعة، كنت أشعر أن اهتماماتي تتجاوز المنهاج، وفي الرسوم كان هذا الشعور بالطبع طاغيًا. كان مدرس الرسم يقول لي عندما أعرض عليه بعضًا من بنات أفكاري بالقلم الرصاص، إنها «لا تصلح لشيء»، ثم أقضي الساعات في مجادلته، أُبين له كيف تصلح ولماذا وأين، حتى رأيت ذاتَ يوم أني أُبدد وقتي بمحاولة تعليم معلمي، ولم أعد أتفوه بشيء بعد ذلك. وأدركت تدريجيًّا أن كلَّ ما يجب أن تعمله يمكن أن أحصل عليه مجانًا من مكتبة المدرسة.

وذات ليلة قُلت لماري: «أتعرفين، إذا كان العبيد حقًّا هم مَن لا يفعلون إلا ما يُطلب منهم، إذن فهذا هو شأن كل زملائي من الطلبة هنا.»

قالت: «ألم تدرك هذا إلا الآن؟ كان بوسعي أن أذكره لكَ عندما قابلتك لأول مرة في المدرسة الثانوية ... وهذا هو أساسًا ما جعلني أهتم بك.»

«لماذا، ماذا تعنين؟»

«كل الصبية الذين قابلتهم حتى الآن كانوا عبيدًا، بلهاء صغارًا يروحون ويغدون مرددين ما يُصب في آذانهم، بل إن أفضلهم، الأفضل جدًّا، يفعل كلَّ ما يُعيَّن له، حتى يكون بوسعه أن يحقق جانبًا ضئيلًا مما يبغي. وفجأة وجدتك، وكنت تفعل ما تريد وتقول ما تفكِّر فيه. أدركت الأمر على الفور؛ لأن كل شيء جاء مفاجئًا وغريبًا، وكان من السهل أن أرى أنك تختلف عنهم جميعًا. فلم تكن ترفض فقط أن تفكِّر وتفعل هذا لم يخطر على بالِ أحدٍ من قبلُ أبدًا.»

«لكن هؤلاء الشُّبان ليس لديهم ما يبتغون عمله حقيقة، كما يبدو. إنهم ينتظرون فقط مَن يُريهم الطريق فيجرون، ولكنهم عاجزون عن أي شيء حتى يخبرهم أحد ... لقد أُسقط في أيديهم، فهم لا يستطيعون التفكير بأنفسهم. لم أعرف أبدًا أن الناس على هذه الحال من السوء.»

فضحكت بصوتٍ عالٍ: «أنت في بعض الأشياء بريء براءةَ الأطفال. إن الرغبة في الانقياد طبيعة إنسانية، أما الشواذ الذين لا يتلاءمون مع مجتمعهم، وهم واحد في المائة، فهم الذين لا يتميزون بها. أنت تؤمن بنفسك. وأغلب الناس ليست لديهم نفوس يؤمنون بها ... ألا تعرف هذا؟»

قلت: «أعرف؛ بل أعتقد أنني وأنا صغير كنت دائمًا أشكُّ في أن الناس من قشٍّ ولا يمكن الاعتماد عليهم، لكني لم أفكِّر في الأمر تفكيرًا حقيقيًّا أبدًا. أما الآن فلا بد لي من التفكير فيه؛ فهؤلاء هم الذين أنتظر منهم مساعدتي في بناء أبنيتي. لا بد لي إذن من سبيل آخر.»

فقالت: «هناك سبيل آخر.»

«ما هو؟»

«كل ما نحتاج إليه هو المال، وعندئذٍ تبني ما تشاء.»

ضحكت: «بالتأكيد، لكننا لم نحصل عليه أبدًا.»

كانت تلك هي الحقيقة؛ فطوال عامين كنا نعتمد على أنفسنا ونقدم كلَّ نِكلة نقتصدها للجامعة الكبيرة، التي كانت تثبط من عزمي طول الوقت في كلِّ ما أريد أن أتعلمه. فلم أجنِ مقابل نقودي سوى فرصة الكفاح بكل قوَّتي للتمسك بأفكاري وعبقريتي. وقررنا أنه من الغباء أن نستمر هكذا، فتركت الجامعة، وعُدنا إلى شيكاغو وقد وضعنا في سيارتنا ما نملك من ملابسَ قليلة وحقيبة امتلأت برسوماتي واسكتشاتي ومشاريعي. لم يكن هناك حدٌّ لما بوسعي أن أعمله الآن؛ ذلك أني لم أعُد مرغمًا على الكفاح ضد أحد، كما كان

الأمر من قبلُ مع مدرسي وكتبهم في حجرة الدراسة. كل ما عليَّ أن أفعله الآن هو أن أفكر وأعمل، دون أن أتكلم أو أقنع أحدًا. وقالت ماري إنها لم ترني من قبلُ على هذه الحال من السعادة، وطَوال الطريق المؤدي إلى منزلنا، كنت أُدندن وأغني: «سيأتي عالَم أفضل، أوه أجل يا إلهي إلهي إلهي، سيأتي عالم أفضل، أجل حقًّا.» وفي رأسي كنت أرى المباني ترتفع عالية، والناس يرقبون والرهبة ملء عيونهم. كنت أعرف أن الجميع سيدركون على الفور مَن أنا، وكيف أفكِّر، وما أستطيع أن أعمل، بمجرد أن يروا المباني، ولن أضطر لأن أشرح نفسي لأحدٍ مرة أخرى.

كان العالم الذي أعيش فيه عالمًا متداخلًا، وكانت الأشكال كلها تتحدَّد أمامي بوحدتها أو انعدام هذه الوحدة، كنت أتبيَّن على الفور ما هو صواب وما هو خطأ في أي شيء تقع عيني عليه، وكان أكثر ما يزعجني هو أنه خلف كل شكل قبيح كانت هناك فكرة ملتوية، كذبةٌ ما أو فكرة خاطئة، رأيٌّ محدود يستثير فيَّ ضده. كانت عيناه تقدمان لي دائمًا البرهان المخيف على أن هناك عقلًا مجنونًا خلف كل بناء مجنون، وأن هذا العقل قد زُود بالقوة الخارقة اللازمة لبناء المباني. أدركت أيضًا أن كل بناء فظيع ووحشي يرمي إلى تشويه أسلوب الإنسان العادي في النظر إلى الأشياء، وأننا إذا سمحنا للفظاعة والوحشية أن تكونا هما القاعدة — كما هو شأنهما في كل مكان — لشعر الجميع بالحاجة إلى كلِّ ما هو فظيع، ووُصم كلُّ مَن ينجو من بيئته بغرائزه الطبيعية سليمةً بأنه عدو «للجَمال»، ومخطئ في حق «الخير» العام. رأيت أن «المدينة» قد أصبحت آلة لسجن الإنسانية في الإنسان وهي تغذي فيه الآن كلَّ ما هو شرير وحيواني، تُشجِّع قساوته، وتقضي على حبه، وتستعيد كلَّ ما يملك من رغبةٍ غريزية في الحرية.

وإذا كان شعوري بأهمية الوقت يُؤرقني دائمًا فيما سبق، فقد كنت الآن أعتبر كل ثانية أثمن من النقود ذاتها؛ لأني أعرف أن أغلب ما هو قائم يجب هدمه وإحلال غيره محله، وكنت واحدًا من قلة من الرجال يستطيعون ذلك. كنت أجد أحيانًا بعض الأبنية التي أستطيع احتمالها، لكن نادرًا ما كان أحدها قد شُيِّد بواسطة أحد المعاصرين لي. فأغلب ما نجا من غضبي شُيد في الماضي، ولهذا كان يتعرض للخطر لأنه يعترض الطريق، وكان يجري إزالة أغلبه بالفعل ليخلي السبيل لبلاهةٍ جديدة يعتبرونها ضرورية. أمنَ الغريب إذن أن مرور الزمن كان يزعجني؟ كنت أشعر بالأسف عند تناول الطعام، أو النوم، وأحيانًا عند تبادل الحب مع ماري؛ لأن القليل الذي أُعجبت به كان يتعرض للتدمير، وما يُشيَّد كان خاطئًا، وشعرت أني لا بد وأن أشرع في عملي بأسرع وأصح ما يمكن إذا

أردت أن تكون الأشياء على الصورة التي أبتغيها: جميلة، عنيفة، صحية، وأيضًا، بالطبع، متحركة.

كنا قد ادخرنا قليلًا من المال، يكفي لشراء قطعة من الأرض في ضواحي المدينة، وعندما تم هذا، أقمت بناءً مؤقتًا ذا سقف خشبي أشبه بالخيمة. وأقمنا في هذا البناء بينما كنت أضع تصميمي، الذي عكفت عليه ليلًا ونهارًا حتى انتهيت منه في أسبوع واحد. كلفتنا الأرض خمسمائة دولار فقط، فتبقى لدينا ألف دولار، كان عليَّ أن أبتاع منها كلَّ ما أحتاجه من مواد. ومع ذلك كان البناء الذي صمَّمته يحيط بكل أطراف أرضي في حركته المستمرة ليلًا ونهارًا.

قالت ماري عندما أريتها مشروعي: «هل تعدني ألا تغضب إذا قلت لك رأيي؟»

«بالطبع.»

«حسنًا، إنه يعجبني ... يعجبني حقًّا ... إنه جميل، مثل كلِّ ما تفعل يا روبي.»

«ولكن ...»

«ولكن، لست أعرف شيئًا عن الأرضيات الخرسانية، ولكن هل فكَّرت فيما يحدث لأسنان الأطفال عندما يقعون فوقها؟ وأليست فكرة الدوران هذه غريبة قليلًا، ألن تُصاب رءوسنا بالدُّوار؟ وماذا عن الدواليب، إننا نحتاج إلى الكثير منها، وإلى مكانٍ نضع فيه الدرجات التي سيُطالب بها الأطفال، وحاصدة العشب، وكل هذه اللوازم ... لست أعرف، لكن هل من الضروري أن يكون غريبًا هكذا؟ ألا يمكننا أن نبدأ على مهل، فيكون لنا منزل يتحرك قليلًا فقط، أو شيء من هذا القبيل؟ هل أنت على ثقة يا روبي أننا لن نفقد توازننا ولن نستطيع الوقوف على أقدامنا؟»

رفضتُ أن أجيب على أيٍّ من هذه الأسئلة، والتقطت رسوماتي، والتجأت إلى طرف الخيمة القصي. فقالت وهي تقترب من: «أوه روبي ... لا تغضب. إذا كنت راضيًا عن هذا المشروع فأنا الأخرى راضية، يجب أن تعرف هذا. فقط أريد منك أن تتأكد. ثم إنك لن تعرف هذا. فقط أريد منك أن تتأكد. ثم أنك لن تستطيع العمل إذا كنت لا ترى أمامك جيدًا. كيف يكون بوسعك أن ترسم إذا كان المنزل كله يتحرك؟»

«لسوف يتحرك في بطء شديد بحيث لا نشعر به.»

«ها أنت ترى، كلُّ ما عليك أن تفعله هو أن تخبرني، لم أكن أعرف ... لماذا أخفيت عني هذا؟»

«لقد ظننت أننا سندور بسرعة هائلة كما كنا نفعل ونحن صغار.» وقبَّلتني ثم ضحكت منفعلة: «حسنًا، ماذا إذن إذا كان هذا هو ما تريد، فكلُّ شيء على ما يرام بالنسبة

لي. ربما سنشتهر بعائلة روبي أوريلي الدائخة ولكننا سنفوز بالشهرة. فهذا أقصى ما سيذهب إليه أغلب الناس في حديثهم عنا. لسوف يطئون سياجنا بأقدامهم ويتلصصون على نوافذنا، ليروا ما إذا كنا مقيدين إلى مقاعدنا وأرائكنا، أو أننا نتعلَّق بمقابضَ ما، أو ماذا. لندعهم وشأنهم، فلن يعني هذا سوى مزيد من النجاح لك.»

ضحكتُ بدوري وأنا أحتويها بين ذراعي: «لا تقلقي يا ماري، لسوف يكون كل شيء على ما يرام؛ فأنا أعرف ما أنا فاعل.»

وفجأة ابتلت ضحكاتها وتحولت إلى دموع، وانفجرت في البكاء: «كلُّ ما في الأمر أني لا أعرف أبدًا ما تنوي أن تفعل، أنت دائمًا تفاجئني، وأحيانًا لا أكون مهيأة، أنت تعرف، فأنا أحتاج لبعض الوقت كي آلف كلَّ هذه الأشياء الجديدة التي تفكر فيها. ليس لك يا روبي أن تلقي أمامي شيئًا رسمته، ثم تكتفي بذلك، عندما يتعلق الأمر بمنزلنا نحن. فيجب أن تشرح لي كل شيء، وتقول لي كيف تعتقد أنه حسن ولماذا.»

قلت: «حسنًا يا ماري. لسوف أفعل من الآن فصاعدًا. كلُّ ما في الأمر ... حسنًا، كلُّ ما في الأمر أني لم أكن أظن هناك ضرورة لذلك.»

قضيت تلك الليلة ساهرًا، دون أن أعمل؛ فقد ظللت جالسًا أتساءل عما إذا كان ما فعلته جدير بأن أفرضه على ماري. كنت أعتقد فيما سبق أنها تحب حقًّا كلَّ ما أفعله. تحكم عليه وتحسم رأيها بشأنه بوحي من تفكيرها هي. أما الآن فقد أدركت أنها ببساطة تحبني وتؤمن بأن كلَّ ما أفعله حسن؛ كانت المسئولية كلها على عاتقي. ولأول مرة وجدتني أفكِّر، مرغَمًا، في أني قد أكون مخطئًا، وأنه قد يحسن بي أن أقلع عن مشروعي.

درست المشروع بعناية. كان يبدو لي جميلًا للغاية. فلماذا لم يكن كذلك في عينيها؟ لم يكن بوسعي أن أتجاهلها كما فعلت مع الآخرين؛ لأنها كانت رفيقة وطيبة وحلوة وكاملة، ولم يكن بوسعي أن أتجاهل رأيها. فكَّرت أنها ربما تعجز عن تصوُّر المنزل من الرسم، وأن خطوطًا على ورقة لا تريها، كما تريني أنا، كيف سيبدو كل شيء بالدقة. وبهذا فلم يَعُد هناك ما يقلقني؛ لأني كنت أعرف بالضبط كيف سيبدو المنزل عندما ينتهي بناؤه، وكنت واثقًا من أنها ستحبه كما أحبه. وعندما توصَّلت إلى هذه، أصبحت نافد الصبر بشكلٍ لا يحتمل، وأنتظر تواقًا لأن أرفع البناء حتى تراه، فإلى أن يُشيَّد، سأظل أنتظر، وأنتظر أن يتلاشى خوفي من أنها قد لا تحبه. كنت أعرف أن إعجابها به شبه مؤكد، وأنها ستقف أمامه مبهورةَ الأنفاس وتقول: «أوه يا روبي، كل شيء كما قلت أنه سيكون لشد ما أحبه.» لكن كان من المحتمل أيضًا أن يقشعر بدنها أو تحتقر ما بنيته لنا وعندئذٍ لن أفعل شيئًا سوى

أن أصرخ وأثور وأريها في جنون كم هو رائع، وأقنعها، وأُناقشها، دون أن أومن مطلقًا بأنها تفهم فعلًا ما أقول، أو ما فعلت؛ لأني لن أستطيع أبدًا أن أمسح تلك القشعريرة الأولى أمامه، كما لو كانت أمام القبح. سيكون أمامي أن أنقلب عليها أو على مبناي، أكره واحدًا، وأواصل محبتي للآخر — وآه يا إلهي — كيف يكون هذا بوسعي وهما الاثنان مُهمان لي؟ لسوف تحبه بالطبع، إن ماري ليست غبية، وبوسعها أن تتبيَّن الصواب من الخطأ. (إذن لماذا لم تُعجب به؟) ربما لا يمكنها أن ترى الفارق، شأنها شأن الآخرين. (لكن إذا كانت ماري لا تعرف الفارق فمن يعرف إذن؟) فكَّرت في بعض الناس، واستحضرت صورهم في شريط سريع أمام عقلي، ثم استبعدتهم. لم أقابل أو أعرف أحدًا على الإطلاق يملك ما تملكه ماري من نفاذ البصيرة. (أيمكن هذا؟ أيمكن أن أكون أنا الوحيد الذي يعرف سلامةَ ما يفعل؟ أيمكن أن يقر الناس تلك المباني البشعة التي يقيمونها؟) كان عليَّ أن أتقبل هذه الاحتمالات، وعندما فعلت لم يبقَ أمامي مِن حَكم ألجأ إليه سوى حكمي أنا. وفكَّرت: سواء كان الأمر صوابًا أم خطأ، فإني أعرف ما هو الحسن وما هو الشيء، ما هو أكذوبة وما هو صدق سواء كان الأمر صوابًا أو خطأ، يجب أن أومن بنفسي؛ لأني أعرف أنني على صواب.

قمت منهَكًا إلى الفراش، لأنضم إلى شكل ماري الساحر تحت الأغطية، دافئة وصائبة وحبيبة. لكن شيئًا قد تغير. فقد أصبحت الآن أشعر بوحدتي أكثر من ذي قبل، بانفصالي عنها. لم أعُد أفكِّر في أشياء «سوف نبنيها». عرفت أن ماري لم تشترك بدورٍ فيما كنت أفعل، رغم حبها لي، وإيمانها بي، ورغم أنها أعطتني حياتها. لن يكون بوسعي بعد الآن أن أثق في حكمها، على الأقل فيما يتعلق بعملي. كنت أعرف أني إذا كنت لا أملك الثقة بماري، فليس بوسعي أن أثق بأحد على الإطلاق. ومع ذلك ظللت آمُل أن تحبه ماري عندما تراه يتحرك.

ورغم أنها جاءت إليَّ في الصباح التالي، تُقبِّل وجنتي وتحاول إقناعي بأنها فكَّرت في أمر المنزل وأصبحت تحبه الآن، فإني لم أصدِّقها، ولم يؤثِّر هذا في حبي لها، وأمكنني أن أقنعها بأنها لم تغضبني، أو تهز من ثقتي، أو تقل من عزمي، وسرعان ما عُدنا إلى الفراش في وضح النهار نتبادل الحب بنفس العاطفة والإخلاص اللذين عهدناهما في بداية زواجنا، وظننت أني قد نسيت كلَّ ما كان من شأن الليلة الماضية. والواقع أنني امتصصت تجربة نفورها من مشاريعي، ولم أعُد أشعر بأهمية ذلك؛ فقد كان حبي لها قويًّا لدرجةٍ جعلتني لا أعبأ برأيها في عملي.

وخلال الشهور القليلة التالية، وجَّهت تفكيري كلَّه إلى بناء المنزل. ووجدت عندما انتهيت من تقديراتي أنه يلزمني حوالي خمسة آلاف دولار للمواد، ولو قمت بالعمل كله

بنفسي، فضلًا عن حفر الأساس والبئر، وهكذا انطلقت أجمع هذا المبلغ من المال. فالتحقت بمؤسسةٍ ضخمة على مقربة، تقوم بأعمال التصميم وإمداد المقاولين بالمواد والاستشارات ونجحتُ في أن أقوم بأودنا، ماري (التي أصبحت حاملًا) وأنا، وأن أحصُل في نهاية العام على قرضٍ مكَّنني، بالإضافة إلى التخفيض الذي يُمنح للعاملين في المؤسسة، من شراء الأسمنت والرمل والخشب والأنابيب والطوب والبلاط، وكل الآلات الدقيقة التي أحتاجها ليظل منزلي في حالة حركة، وتبقَّى بعد ذلك مبلغ ضئيل للمواد الداخلية.

وسرعان ما برزت هناك، على مبعدة حوالي مائة قدم من خيمتنا، حفرة، ثم تبدَّت معالم الأساس الخرساني ... على هيئة زهرة غريبة ذات محور من الأسمنت المتين في وسطها، يبدو كبقايا جذع ضخم بعد اجتزازه. كان الناس قد بدءوا يتجمعون يحدقون، يأتون في جماعات صغيرة في عطلات نهاية الأسبوع، يتسكعون في الطريق، بينما كنت أنتهي من الأرضية الضخمة التي ستستقر فوق الجذع، وتدور كعجلة خشبية ببطء شديد بحيث لا يكاد يشعر بها أحد حتى ماري. وبدأت أصُفُّ الطوب فوق الأساس الخرساني الصلب وحول الأرضية التي ستدور في بطء، حتى بلغت به ارتفاع ستة أقدام، وعندئذٍ ثبَّت كمرات الألمنيوم التي ستحمل الزجاج والأخشاب الخارجية الخفيفة الوزن.

وظهر بالتدريج أن المنزل سيبدو أقرب إلى مزولة (جيروسكوب) ضخمة وضعت داخل خيمة من الطوب والخشب والزجاج، وتدور حول جذعها الداخلي. وقبل أن أنتهي كنت قد بدأت أشعر بشيء من عدم الرضا بسبب بساطته، وفكَّرت أن ما فعلته ليس شيئًا جديدًا كما بدا لي في البداية. بل إني فوجئت عندما أبدى بعض مَن قدِموا ليتفرجوا دهشتَهم.

فقد رأوا فيه أعجوبة؛ لا يشبه غيره من المنازل التي شُيِّدت من قبل. وأذهل عقولهم بوجوده، وأثبت أن غيره من المباني ليست سوى أشياء بالية أو محاولات فاشلة. وألقى جانبًا بكل الأشكال السابقة وانتصب في شكله الجديد ينكر في براءةٍ أنه مختلف عنها أو أنه خطر أو متعالٍ، أو أي شيء، سوى أنه هناك ببساطة، متعة للناظرين، وبهجة للساكنين، وصرح متحرك يؤكد أنه كان من الخطأ ألا يتحرك. أُصيب الناس بالرعب؛ إذ تساءلوا لماذا كانوا قانعين بما هو أقل منه ... فقد حطَّم اطمئنانهم إلى أن كلَّ ما يحيط بهم هو الأفضل والأحسن، وأحل مكان هذا الشعور إدراكًا مرعبًا بأن عالمهم كان سجنًا ثابتًا، وأنهم كانوا أسرى الأشياء الثابتة الجامدة التي تصنعها أيدٍ أقل إبداعًا.

كان المبنى الذي خلقته يقلِّل من شأن جهودهم، وكان رد الفعل لديهم هو الحقد أو الفكاهة، الشك أو السخرية ... حاولوا أن يدمِّروه أو ينكروه. لكنه كان هناك بالفعل،

وكانوا عاجزين أمامه. كان يطالبهم بأن يراجعوا نظرتهم إلى المساكن؛ لأنه لم يكن يتفق ومفاهيمهم، وكان يطالبهم بأن ينحُّوا جانبًا كلَّ تلك المعتقدات السابقة التي ثبت زيفُها. لم يكن أمامهم إذا أرادوا أن يحتفظوا بثقتهم، سوى أن ينكروا وجود هذا المبنى ... وهو ما فعله أغلبهم، رغم أن قلة صلبة العود منهم، قرَّرت المطالبة بإزالته؛ لأنه يهدِّد الأطفال الصغار في المنازل المجاورة، وهاجمت عُصبة من الأمهات الثائرات لجنةَ التخطيط في الولاية مطالبة بحظر المنزل. وجرى على الفور تحقيق.

سألني المفتش: «هل لديك تصريح بالبناء في الولاية؟»

أجبت: «كلا؛ فلم أكن أظن أني سأحتاج إليه. لقد اعتقدت أنكم ما دمتم تسمحون ببناء هذه الصناديق التي ستنهار بعد سنوات قليلة، أو تغرق سكانها لو انتهك القانون إذا ما أقمت شيئًا جميلًا وصحيحًا، خاصةً أنه لأجلي؛ ولا أنتوي بيعه.»

وسألني المفتش الذي أصبح يبدو كالثمل: «لكن كيف تحصل على مياه المدينة وتيارها الكهربائي؟»

قلت: «لن أفعل. إننا على مبعدة تغنينا عن هذا. فلدي بئر، ووسائل التخلص من الفضلات، وقد أقمت مُولِّدًا صغيرًا ليمدني بالكهرباء ... ذلك أني لو حصلت على الكهرباء من الشركة، لاقتضتني إدارة السقف والأرضية الكثير. لم يكن بوسعي أن أقيم المنزل دون مُولِّد خاص. وهو يكلفني الآن سنتات قليلة في اليوم.»

قال المفتش: «هذا غير معقول.»

قلت: «أبدًا؛ فهذا المنزل كله تكلف حوالي خمسة آلاف دولار، وهو يكلفني أقل من عدة دولارات في الأسبوع.»

رفض المفتش أن يتناول كوبًا من الليمون أعدَّته ماري. وغادرَنا غاضبًا وهو يصيح مُهددًا: «لسوف تسمع مني مرة أخرى.»

تابعته ماري ببصرها ثم سألتني: «لماذا هو غاضب هكذا؟»

قلت: «لأنه مخطئ.»

الفصل الخامس

رغم أن ماري كانت ترقب المنزل، أثناء ارتفاعه، بارتياب، وتتوجَّس خيفةً من فكرة دورانه تحت أقدامنا، فإنها بدأت تتقبَّله بعد أن انتقلنا إليه، وتصالحت معه تدريجيًّا، وأحبَّته وأعزَّته ودافعت عنه أمام كل التافهين. كانت تقول للزائرين: «لا يمكنكم أن تتصوروا جمال الحياة هنا، إلا إذا أقمتم هنا فصلًا كاملًا، وعندئذٍ ستعرفون. لن يكون بوسعي أن أعيش بعد الآن في منزلٍ عاديٍّ؛ فسوف يكون كئيبًا ورتيبًا ولسوف أموت. ليس بوسعكم أن تتصوروا كم هو مريح، وهو يتحرك ويتغير دائمًا. لماذا؟ بوسع المرء أن يركن إلى سكونٍ عميق في وحدة تامة. لم أعهد مثل هذا الشعور من قبلُ إلا مرة واحدة، وذلك أيام المدرسة عندما كنت أنزلق فوق أكوام القش، لكن هذا ليس إلا جانبًا صغيرًا مما يحدث هنا.»

وكان الزائرون يومئون برءوسهم حينئذٍ ويبتسمون، كما لو كانوا يفهمون، لكنهم سرعان ما يرحلون وهم يهزون رءوسهم، مما يجعل ماري تحنق عليهم لأنهم لم يعشقوا المنزل على الفور كما فعلت هي، بعد أن أَلِفته الآن.

كان يبدو أشبه بقمةٍ دوارة ناعمة ومقلوبة رأسًا على عقب، قاعدتها مستديرة ومن الخرسانة الصلبة، رأسه نقطة تتجمع عندها كل الجوانب وتمتزج في ذروةٍ يدور حولها في بطء سقفٌ مسطح مثل أسطوانة الموسيقى صُنع من البلاستيك الملوَّن والخشب الداكن. وفي الداخل كان السقف يغذي الجدران والأرضية تدور بالألوان المتغيرة لضوء الشمس، وكانت الأرضية تدور ببطء في اتجاهٍ معاكس لاتجاه السقف. لم تكن الحركة كلها بالطبع لتتجاوز إحساسًا خفيفًا، دون شعور بالدُّوار؛ لأن الحركة كانت تجري ببطء شديد لا يكاد يلحظه أحد في المنزل. وكان إدراك حركة الأرضية ينتقل إلى المرء بإحساس غير واعٍ، إيمان مفاجئ لا يحتاج إلى تأكيدٍ ما، كأنما تراجعت الذات لتُتيح للعقل أن يركن إلى الخيالات وقد أغناه المنزل عن الحركة، بما يقدِّمه هو نفسه من تغييرات مبهِجة، وكان السقف

الدائر، يخلق شعورًا عميقًا بالزمن الكوني؛ فالسماء تتحرك بطريقة مختلفة عن الأقدام، ومع ذلك كان العمود الأبيض المستدير وسط حجرة المعيشة الضخمة يوحي بأن الاثنين يرتبطان في الحقيقة بمحورٍ يعتمد بقدمه على الأرضية بينما يخترق رأسه السُّحب … ويوشك المرء أن يظن أن ذلك العمود المصقول الناعم يمثِّله هو نفسه في الزمان والفضاء، وبذلك يكون بوسعه أن يستريح لحظةً من كل جهوده، يتوقَّف فيها عن الفعل المستمر، منسحبًا من نفسه. سرَّني أن أكتشف أني قد خلقت بناء يهيئ تصميمه لساكنيه، أن يبتعدوا عن أنفسهم، وأدركت أني لو كنت غريبًا يرى منزلي لأول مرة، كما حدث لي مع أبنية رايت وسوليفان، فإنه كان سيحدثني في هدوء وسخرية وعنف بينما يتحرك ببطء في عالمه الخاص … أنكِر نفسك، اركن إلى السكون والهدوء، لتشعر بالحركة الأعظم! جلست وتعلمت منه أكثر مما يستطيع أيُّ شخص سواي. كل الأشياء تتحرك عندما تكون ساكنة هادئة!

لكن الأثر الذي تركه المنزل في الآخرين خيَّب أملي، قُلت لماري: «إنه لا يحدث بهم أي تغيير، إنهم يستخدمون المنزل لكنهم يظلون كما كانوا من قبل. كنت أنتظر أن يتعلموا منه.»

وابتسمت ماري قائلة: حسنًا، لقد غيَّرني أنا.»

«كيف؟»

«إني أحبه، لكني الآن أكره الناس.»

ضحكتُ: «أنتِ تخلطين بين عدم الاحترام والكراهية. ليس عليكِ أن تكفي عن محبة الناس لمجرد أنكِ اكتشفتِ أنهم عاجزون عن الإحساس بالجمال. إن أغلب الناس مساكين، ويجب أن نشفق عليهم. هل تقبلين أن يكون رأسُك في التراب هكذا؟»

أجابت برقَّة: «لا أستطيع أن أنسى أن هذا هو ما كان سيئول إليه أمري لو لم أعثر عليك.»

قلت: «إن كل كائن بشري يولد مجنونًا، مجنونًا متعلمًا، ثم يأخذ مكانه في مجتمعٍ مجنون. ليس هناك كثيرون يملكون الثقة ليكتشفوا أن بوسعهم أن يكونوا أحرارًا، ثم يعيشون في حريةٍ رغم أن هذا قد يعني عزلتهم عن كافة المجانين.»

قالت: «لست أفهم.»

أوضحت لها: «أعني أن المرء لا يكون عاقلًا إلا إذا عزل نفسه عن مجتمع الآخرين المجنون. ولا يملك كثيرون القوة أو القدرة على أن يفعلوا هذا.»

لم يأتني عملاء بعد إتمام منزلي، ورغم أن ماري وأنا عشنا في تقشُّف شديد، إلا أننا سرعان ما أصبحنا ثلاثة، وواجهنا نفقات المستشفى والطبيب وغير ذلك، وهكذا وجدنا أنفسنا في حاجة إلى المال. كان ابننا ولدًا رائعًا ... يجمع بيننا نحن الاثنين، لكن الغريب أنه خرج من هذا المزيج بشخصيةٍ جديدة تمامًا خاصة به. كان من العسير علينا أن نعيش هكذا، بولد جديد رائع، وفي منزلٍ يحيط به جمالٌ إبداعيٌّ ساحر؛ لأننا كنا بلا مال، ولا عون، ولا تقدير، وقد ذابت كل فرص بناء منازل جديدة، بعد شهور قليلة.

وكانت السنوات القليلة التالية شاقة ومريرة. فقد حاولت حكومة الولاية المنتخبة انتخابًا صحيحًا أن تنتزع منا منزلنا، وكان عليَّ أن أُكافح للدفاع عما كنت أعتبره العمل الوحيد الصائب الذي قُمت به، ونشرت الصحيفة الأكاذيب ووصفت منزلي بأنه «خطر على مجتمعنا». وزعمت لجنة تخطيط الولاية أنه ينتهك قوانين المناطق الجيولوجية، وتوصَّلت الإدارة الصحية إلى أن أجزاءه المتحركة تُمثِّل «تهديدًا»، وامتنعت المجلات عن نشر صوره، ثم ذهبت لجنة من الحي مؤلَّفة من جيران روبي أوريلي إلى اجتماعٍ لمجلس الولاية ذات ليلةٍ وشهدوا بأن المنزل قد هبط بقيمة الأرض في المنطقة. أما رد الفعل الجماهيري فلم يحدث إلا عندما تبيَّن أني لا أملك تصريحًا بالبناء. فقد ارتفعت صيحةُ الجماهير بأن السماح لي ببناء ما أشاء يعني أن أيَّ مُهرِّج بوسعه أن يرسُم خطًّا قد يشيد لنا ما هو «قذًى في العين» مما يعني نهاية «المستويات العليا التي كافحنا بشدة سنواتٍ طويلة كي تسود صناعة البناء». وبرغم كل الاعتراضات على منزل أوريلي، فإنه ظل سليمًا دون أن يُمس أو يُصاب بأذًى، وأثبت لي بذلك أن القوى المنظمة التي أثار عداءها كانت في الحقيقة عاجزة ومغرَّرة، على الأقل عندما نواجه شيئًا قائمًا بالفعل. وأدركت أن المنزل يَدين بوجوده إلى أني لم أطلب أبدًا من أحدٍ تصريحًا أو إذنًا ببنائه، ولم أصفه لأحدٍ فيما عدا ماري التي لم تكن هي نفسها واثقة من الأمر.

وعندما كبر الصبي، وأصبح من الممكن أن يبقى معي، اشتغلت ماري بائعةً في حانوتٍ للثياب ببلدة مجاورة، بينما واصلت العمل في تصميماتي وأفكاري، أتمرَّس بتكنيكي، وأرى أبنيتي تكتسب شكلها تحت قلمي دون أن يكون بوسعها أن تنفذ للعالم الخارجي. لم أُقارن عملي أبدًا بعمل غيري، لكني أحيانًا كنت أنزلق إلى ملاحظة مبنًى يجري تشييده وسط الاستحسان والثناء والتهليل، وعندئذٍ ينتابني إدراك مؤلم بأن مَن يقف خلف المشروع ليس أقل أستاذية مني ... ورغم كل المجالات التي كنت أثيرها أمام نفسي، فسرعان ما ألفيتُني

مرغمًا على أن أُقر بأني أفضلُ معماري في بلادي؛ فقد كنت وأنا لم أتجاوز بعدُ الرابعة والعشرين، الوحيدَ الذي تنطبق عليه شروط المعماري كما أراها.

وكانت ماري تقول لي ضاحكة: «أنت عبقري، وأنت تعرف ما يحدث للعباقرة، فلم ينل أحدهم أبدًا مالًا أو سُلطة، وطوال حياتهم يبصق الآخرون عليهم، وتضيع أعمالهم أو أغلبها. ثم وبعد مائتين من الأعوام يقرِّر شخصٌ ما أنهم ممتازون، وفجأة يتدافع الناس في جنونٍ على أعمالهم، التي لا يكون قد تبقَّى منها الكثير حينئذٍ. فما إن يُعثر على بعضها حتى يُوضع في المتاحف أو خلف الأسيجة، وتجري حمايته وترميمه والتأمين عليه. ويُشغف به الجميع إلى حد الجنون ويقولون: «ووه، أليس عظيمًا، ألم يكن رائعًا؟» لكنهم لا يتعلمون أبدًا؛ لأنهم في هذه الأثناء تراهم يتجاهلون الرجل الوحيد بينهم الذي يمكنه أن يُحدثهم عن عصرهم وعن أنفسهم، ويحاربونه ويهزمونه ويقلِّلون من شأنه ويدمرونه ويبصقون عليه، وهلمَّ جرًّا. مثلما يوجد إنسان وحيد في حظيرة للخنازير، أليس كذلك؟ فلا يمكن للعبقري أن يتحدَّث إلى خنازير، وليس بوسعه مساعدتها أو تسليتها؛ لهذا لا تملك الخنازير سوى أن تعبث بعمله، تأكله، تطأه بأقدامها، وتتركه للريح تذروه. ثم بعد سنوات قليلة يُلقي كائنٌ بشريٌّ آخرُ وسط الخنازير بصرَه إلى أسفل ويرى بعض البقايا فيقول: «هي ... إنها لممتازة حقًّا»، ويثور انفعاله، ويُلوِّح بها وهو يهتف بالخنازير: انظري إلى هذا، لكن الخنازير لا تعبأ. وأقصى ما يستطيع الكائن البشري أن يفعل هو أن ينقل ما اكتشفه إلى الكائن البشري التالي الذي سيأتي بعده ليعيش وحيدًا في حظيرة الخنازير. وقبل أن نتبيَّن الأمر، تتجمَّع كومة صغيرة من المواد تنتظر مَن ينقلها، حتى تسحق الخنازير ذات يومٍ ما حولها أكثر مما يجب وتبعثره في كل ناحية. عندئذٍ يبدأ الكائن البشري من جديد، يلتقط ما تبقَّى من بقايا، وينقلها إلى مَن يأتي بعده. هذه هي الحضارة يا روبي العزيز ... لا تصنع شيئًا من أجل الخنازير.

وعندئذٍ تُداعبني مقلِّدة صوت الخنزير: «وينك وينك»، وتغزني في رقبتي بأنفها، حتى أمسك خَصرها بيدي وأميلها في رقةٍ على الأريكة، ثم أنحني فوقها، وأجذب رداءها وأرفعه حتى ذقنها. وعندئذٍ تبدو ساقان وجسد ناعم وحسب، وما زالت تضحك وتضحك: «وينك وينك».

ثم تقول لي في رقةٍ: «أوه يا روبي، إن لك أسلوبًا رائعًا في الحب.»

الفصل السادس

إلى جانب قطعة الأرض التي أقمت عليها منزلي، ابتعت قطعتين أخريين في محاولةٍ قانطة، وأقمت فوقهما بناءين متحركين جديدين، بعد أن دبَّرت المال في صعوبةٍ من عدة مصادر. لكني لم أتمكَّن من بيعهما، فقمت بتأجيرهما بعد أن اضطررت إلى إنقاص الإيجار إلى ما يُقارب تكاليف الصيانة، بالإضافة إلى أقساط الرهن العقاري، وبهذا لم أُحقِّق ربحًا منهما على الإطلاق، ولم ينل هذان المنزلان، شأنهما شأن منزلي، أيَّ إعجاب أو تقدير، لكني تلقيت أسوأ الضربات عندما وجدت أن المستأجرين امتنعا عن تشغيل المحرِّك الذي يُدير المنزلين، وعاشا في ثبات، بل شرعا يزهوان بأن المنزلين لم يتحرَّكا حركةً واحدة منذ انتقلا إليهما.

وفي هذه الأثناء كانت بلادي تُزاد قُبحًا على قُبح، وهي تنتقل من أيدي مستغلٍّ إلى آخر. فقد ملئوا الأرض الجميلة بالشقوق والفتحات، وامتصوا ما بها من معادن، ثم تركوها كُتلًا من الطمي، ولوَّثوا الأنهار، وحوَّلوا المياه إلى سمومٍ قتلت ملايين الأسماك، وقضوا على الحياة البرية وأسقطوا الأشجار الطويلة التي تتجاوز حجم أي إنسان أو عمره بخمس مرات. وبنوا منازل من الورق المقوى بالملايين، وتحايلوا في خداع الناس حتى اشتروها، ثم ارتحلوا محمَّلين بالأموال التي سحبوها من البنوك الفاسدة، بينما كانت المنازل تتحلل قبل أن يجفَّ طلاؤها، وبعد سنوات استيقظ المُلَّاك ليجدوا أن الأقساط التي ينوءون بدفعها شهريًّا لم تبتع سوى فائدة البنك؛ فقد كانت مُدنهم تتداعى بسرعةٍ وتتحوَّل إلى أحياء قذرة متداعية. وفي كل ناحية كان يبدو تحلُّل الجهود الرخيصة القبيحة التي أُفسح لها المجال طويلًا ... فأثبت المرور أن الشوارع غير صالحة، وتفتَّت الخرسانة المغشوشة، ولم تكن المدارس سوى مصانع شُيِّدت على عجل، وفي أواسط المدن كان يبدو التعبير القبيح عن رأس المال الكبير، في شكل الهياكل الكبيرة من الزجاج والصلب التي أملتها دولارات

الإيجار حسب المتر المربَّع ودون اعتبارٍ للجمال أو المتعة أو التعبير الإنساني أو أي شيء آخر سوى الدولار. لم يكن كلُّ ما رأيته يبنى، ببساطة، سوى آلةٍ لجمع المال ... فقد طارت من عقول الأمريكيين الأقوياء كلُّ أفكار الديموقراطية والحرية والخير والشجاعة. كانت المباني العامة تُشيد بواجهات أسمنتية عارية، تُمثل حكومة بلا وجه ولا اسم، وكان الناس يسيرون ويعملون ويعيشون وينتجون بعيون مغلقة، تحيط بهم من كل ناحية قبائح وأكاذيب من صُنع الإنسان.

وأصيح بماري في الليل: «يا إلهي ... أوه يا إلهي، إن بلدي تُغتصب وتُضرب وتُشوَّه وتُستغل وتُفقر وتُخدع ... كل هذا بسبب الغباء وليس بوسعي أن أوقف ذلك أوه يا إلهي ليس بوسعي أن أفعل شيئًا.»

وما كان بوسع إنسان بمفرده، لسوء الحظ، أن «يوقف ذلك»؛ فعندما تنحدر أُمة فوق السفح، لا يستطيع مواطن واحد أن يقف في وجه السيل ويوجِّهه من جديد. لقد استمر كل شيء كما هو، وما زال يسير على نفس المنوال إلى اليوم ... هذا التحول العنيف المرضي نحو الوحشية والقبح والشيطنة والخداع ... وتُساق جموع الشباب عاجزة، دون أملٍ في الثورة. شعبٌ بأكمله ينهار، وأنا مذهول من السهولة التي كانوا يتحوَّلون بها إلى عجينة مشوَّهة بواسطة نظام فاسد لا يعبأ بغير المال ويستغل الجميع (الناس والأشجار والمعادن والطاقة والمياه والفن والتعليم والسياسة) لصالح قلة، كانت تمنح الجماهير حَفنة من المنح مثلما تعطي النادل بحكم العادة. كان النظام يدافع عن نفسه مستشهدًا بكفاءته في مبادلة موادَّ لا قيمة لها بموادَّ أخرى عديمة القيمة، وبهذا فإنه كان أفضل نظام ممكن، ويدلل على ذلك ببرهان جديد هو أن ما يملكه الناس هذا العام من موادَّ عديمة القيمة أكثر مما كانوا يملكونه في العام الماضي. كأنما هو أخطبوط مجنون، يحث الناس، عن طريق الإعلان المستمر، أن يبيعوا وقتهم (الذي يُقاس بدقات ساعة آلية) مقابل شيء لا يحتاجون إليه، وفي حالات كثيرة (كما في السجاير) مقابل شيء ضارٍّ تمامًا، ثم يجعلهم يوقِّعون على كمبيالة تجبرهم على العمل مدة من الأعوام ينتجون فيها منتجات أخرى غير مُجدية، تُباع بدورها بالنسيئة لآخرين مثلهم. وعندما تقتفي أثر المال من جيبٍ إلى آخر تجده يصُب في النهاية في أيدي قلة من المولين، وفي هذه الأثناء تبتاع الحكومة أشياء مثل: القذائف والقنابل التي لا تمر سنوات قلائل حتى تعلن عدم صلاحيتها، ثم تستبدل بالمزيد منها نفسها ... وكل هذا يتم بالنسيئة، الأمر الذي يُغرق كل مواطن في مزيد من الديون، وبالمثل أيضًا أولئك الذين لم يولدوا بعدُ، دَين يُسدَّد عن طريق الحكومة بواسطة الضرائب العالية،

وهذا المال أيضًا يصب في جيوب قلةٍ من أصحاب الصناعات والمولين. وعلى هذا الخليط من الآفات والديون والسلع الرخيصة الصنع العديمة القيمة، ومخزون الأسلحة التي لا تستخدم، أطلقوا تعبير «الازدهار»، وأشاروا إليه كبرهان على الفائدة الرائعة التي يجنيها الجميع من النظام.

لم يكن هناك مكان وسط هذا النظام لرجالٍ ذوي مهارة، أو بصيرة أو مُثُل عُليا؛ فقد كانت المنتجات الشوهاء تُباع بأسرع من الجيدة، ودرجتها العالية من الرداءة تضمن سرعة الاستبدال، ومزيدًا من التداول، وأرباحًا أعلى. كان للأكذوبة في السوق سعرٌ أعلى من الفكرة؛ لأن الأفكار تُباع كالسلع الاستهلاكية لا كحلولٍ حقيقية للمشاكل. وكان الأفضل لهذا النظام لو أن كل المعلومات كان لها هدف واحد هو تبرير استمرار وجوده ونموه. وعندما واجه النظام المتاعب ولم يجد عملًا لبعض أولئك الذين ارتهنوا جانبًا كبيرًا من حياتهم لديه مقابل منتجاته العديمة القيمة، عندئذٍ تحول الرجال القلائل الذين يقفون خلفه إلى الحكومة يولولون، فضاعفت الحكومة مشترياتها من المواد الحربية، وغرقت في المزيد من الديون، ثم زادت من الضرائب العامة لتجد ما تسدِّد به الديون التي قدَّمتها البنوك، التي يملكها نفسُ الباكين الذين يملكون بالمثل النظامَ ويديرونه. هكذا دار المال في نفس الحلقة، وغرق الناس في مزيد من الديون، وازدادت قلة منهم ثراءً على ثراء وقوةً على قوة … وخلقت الصحف فزعًا من الحرب حتى لا يعترض الجمهور على تخصيص الدخول المستقبلة للإنفاق على أسلحة الحرب التي ستبلى من قبل أن يتمَّ سداد ثَمنها بزمن طويل.

كان من السهل أن أرى كيف كان من الضروري للنظام، كي يمضي بلا متاعب، أن يُباع كل إنتاجه بسرعة، وأن يكون من شأنه أن يُباع من جديد عدة مرات أو يكون قابلًا للتآكل السريع، بحيث يمكن استبداله، وكانت معظم الأشياء الكبيرة تُصنع بالطبع طبقًا لهذه المواصفات. فشُيِّدت المنازل مثلًا بحيث تتآكل بسرعةٍ فيضيق بها المرتهنون ويتركونها إلى غيرها، لكنها كانت تتمتع أيضًا بأكبرِ جاذبية ممكنة حتى يمكن بيعها من جديد بسهولة، رغم أن هذا يتم عادةً إلى أسرةٍ من مركز اقتصادي أدنى، وذلك لحماية المصارف العقارية التي تتقاضى فائدة مجزية. وقبل أن يصبح المنزل المعيَّن وشيكَ الانهيار، وهذا يُقدَّر له عادةً بخمسة عشر أو عشرين عامًا، يكون قد بيع خمس أو ست مرات وما زال في أيدي بنك معيَّن، رغم أن كل مالك له قد جُرد من كل شيء باسم «الفائدة»، وفقد كلَّ ما حقَّقه من قيمة بسبب التناقص التدريجي لقيمة المنزل. أما إذا تمسَّك أحد المُلَّاك بمنزله المتداعي، وهبط

بوضعه الاجتماعي والاقتصادي مثلما حدث للمنزل، فإنه في الوقت الذي يكون قد سدَّد فيه الرهن العقاري، ومدته عشرون عامًا، يكون المنزل قد غطَّى غدًا قيمته تقريبًا في السوق، أما المصرف فإنه لم يجمع الفائدة التي كان يدفعها المالك طوال تلك السنوات وحسب، وإنما استفاد أيضًا من إعادة استغلال مدفوعاته خلال ذلك الوقت. وبعبارة أخرى، فإن كل المنازل كانت تُبنى من أجل البنوك التي تؤجرها بربح وفير، تحت ستار «الملكية».

لم تكن البنوك تسعى وراء الجمال الفردي؛ لأن الجمال يُشبع المالك الأصلي، بينما كانت البنوك تُحقق أرباحًا أكثرَ عندما تُباع المنازل من جديد بسرعة. وما كانت ترغب أيضًا في شيء غير عادي؛ لأن هذه الفضيلة تحدُّ من سوق المنازل عندما تُباع من جديد. وأساسًا لم تكن البنوك تهتم بالمنازل الدائمة، المشيَّدة جيدًا بحيث تعيش زمنًا طويلًا؛ لأن هذا الطراز من المنازل لا تهبط قيمته، وبذلك يفلت المرتهن من براثن البنوك.

ورغم أني وجدتُ طريقة للتحايل على النظام — بشراء الأرض وبناء المنازل الثلاثة بنفسي — فلم أتمكَّن من بيعها. ومن أسباب ذلك أن قلة من الناس كانت تجربتها الاجتماعية تؤهلها لشراء شيء جميل، وقد تطلعوا إلى منزل أوريليي والحياة التي يقدِّمها في ريبة؛ لأنه كان غريبًا على الإعلانات التي يشاهدونها. وسبب آخر، أنني لم أتمكن من العثور على بنكٍ يُمول شاريًا بضمان منازلي؛ فقد كنت أعتبر شخصًا غريبَ الأطوار وكان عملي في نظرهم «شاذًّا». ولما كانت منازلي الثلاثة الأولى عسيرة البيع، لم يكن بوسعي أن أجد مُساندة مالية لرابع، بل وجدت أنه من المستحيل أن أقترض مالًا على منزلي الخاص؛ لأن المصارف آمنت بأنها لن تتمكَّن من بيعه إذا ما عجزتُ عن السداد. وكان الطريق الوحيد أمامي لممارسة مهنة العمارة التي اخترتها، هو أن أشتري الأرض ثم أشتري المواد، وأقوم بالبناء، وأقوم بالبناء بنفسي. وبذلك ما كان لي أن أحلم بأن أُشيِّد شيئًا أكثر تعقيدًا من منزلٍ متوسط الحجم، وكنت مرغمًا على أن أقتصر على استخدام أغلى المواد.

قلت لماري: «هذا حسن، لا يهمني أن أعمل بيديَّ المجرَّدتين، لكنني كنت أود ألا أجعل هذه الأمور شاقة بالنسبة لكِ.»

قالت ماري: «لا تقلق، لقد اشتغلت حتى الآن ثماني سنوات، وأستطيع أن أعمل سنوات غيرها. نحن ما زلنا في مقتبل العمر، فأنت لم تتجاوز بعدُ الثامنة والعشرين.»

قلت: «إني لآسف يا ماري. آسف حقًّا.»

«يا للجحيم، لا تأسف يا روبي، فقط افعل ما تريد.»

استمرت ماري تعمل، وقمت أنا بمختلف الأعمال في الناحية. فأعددت تصميمًا لمطبخ، وقمت بمد أنابيبَ للصرف، وبنيت مخازن جديدة، وشيَّدت بضعَ حظائر للأدوات وجاراجًا، وأفنية وأسوارًا …

وواصلت بالطبع وضْع أفكاري على مائدة الرسم. وكان ذلك يتم بالليل ثم أستريح قليلًا في الصباح الباكر قبل أن تنهض ماري. واستطعنا أن ندَّخر عشرة دولارات في الأسبوع، وبذلك اجتمع لدينا في نهاية العام ألف دولار، فبدأت أبحث عن الأرض. كانت أسعار أراضي المدينة، وتلك القريبة من حدودها، تتجاوز إمكانياتي بخمس مرات، فكان عليَّ أن أبتعد في بحثي وأنتقل به إلى الريف.

وفي إحدى رحلاتي وجدت مزارعًا كان يرغب في أن يبيعني خمسة أكرات من غابة قريبة من جدول، مقابل تسعمائة دولار فقط. كانت الأرض تبعد خمسين ميلًا عن أقرب ضواحي شيكاغو. وبحثت الموضوع مع ماري في تلك الليلة.

قلت لها: «إنها جميلة يا ماري، وربما ونحن على مبعدة هكذا لن نواجه متاعبَ الخرائط الجيولوجية والتشريعات المختلفة. إن مَن يُقبل على الشراء بعيدًا هناك لا بد وأن يكون متمردًا مثلنا، وبوسعنا أن نبني خمسة منازل إذا أردنا … أوه، قد لا نبنيهم جميعًا مرة واحدة، لكن يومًا ما سيكون لدينا خمسة منازل، كلها قد شُيدت كما يجب.»

كانت ماري متعَبة وتثاءبت بشدة وهي تقذِف بساعديها إلى أعلى في عنفٍ جعلهما ينحيان جانبًا. «هو وود ياوووهجج … يجدُر بنا أن نأخذ المال ونذهب إلى بلدٍ آخر يا روبي، لكني أعرف أنك لن تفكِّر في هذا أبدًا. حسنًا، ربما استطعت على الأقل أن تنشئ بقعة صغيرة في الولايات المتحدة تساوي شيئًا … أوه حسنًا، لسوف تشتري تلك الأرض على أي حال يا روبي … لكن لا يجب أن نتوقع أي شيء بعد الآن، جنِّبنا أن نمرَّ بكل ما حدث مرة أخرى، اتفقنا؟ لن ننتظر أن يتقدم الناس لينتفعوا بما بنيته لمجرد أنه كامل … اتفقنا؟ لأنك تعرف ما يحدث دائمًا، لا شيء. إذا كان بوسعك أن تعمل دون أن تتوقع شيئًا من وراء ما تفعله، إذن امضِ في طريقك … تذكَّر أنك في حظيرة للخنازير، وأن الخنازير لن تحتاج أبدًا إلى مكان مقدَّس أو إلى الفن أو الجمال أو الجهد الصادق أو النزاعات السامية، أو أي من هذه الأشياء، الخنازير تضع مقدمة رءوسها في الأرض بحثًا عن طعامٍ يزيدها سمنة على سمنة، وتودُّ لو تنتفخ منه حتى تنفجر أحشاؤها. يجدُر بنا ألا نفعل شيئًا من أجلها مرة ثانية، لتعمل من أجلنا نحن، وإلى الجحيم بالمنازل التي لن تُباع أو تؤجَّر على الإطلاق. لنبنِ مكانًا هائلًا ضخمًا، وننتقل إليه، نحن ولا أحد غيرنا، ونستخدم الأكرات

الأخرى في زراعة الخضروات وتربية الدجاج. هل تعرف أن جدي كان يُربي الدجاج وقد علمني كلَّ شيء عنها؟ لنكفَّ عن إسداء الجميل للبلهاء بعد الآن يا روبي؛ لأنك كلما ذهبت مُحملًا بالهدايا تلقيناها مصوبة إلى حلوقنا. أقول لتذهب كل الخنازير إلى الجحيم، واللعنة على أطفالها أيضًا، وإذا كانوا يريدون معابدَ فبوسعهم أن يُشيدوا دولارات هائلة، وهو ما يفعلونه بالفعل كما تعرف. فتلك المباني التي شاهدتها في المدينة ليست سوى دولارات منتصبة على أطرافها، أو أكوام من فيشات البوكر. لو فقط تكف عن المعاناة في سبيلهم، والاهتمام بأمرهم، وتتخلى عن الرغبة في صُنع شيء جميل من أجلهم. هل تتذكَّر عندما تخيلنا أننا سنبني مدينةً كاملة رائعة لهم؟ ما الذي سيفعلونه بها؟ أليرتكبوا جرائمهم، وأكاذيبهم وأعمالهم القبيحة وأحقادهم، على مرمى بصرٍ من مبانيك الجميلة، التي تتحرَّك حولهم؟ كلَّا، لا بد وأن يتغيروا، وبصورةٍ ما يرفعون أنوفهم عن الجذور التي يمضغونها دومًا حتى يمكنهم رؤية الأشجار، وهم لا يؤدون هذا يا روبي، كما تعرف؛ لأنهم يخشون الموت إذا لم تزدد أجسادهم سمنةً على سمنة ... حسنًا، لكنك تعرف كلَّ هذا بالطبع، لقد قلته لك من قبلُ ملايين المرات.»

ركنت إلى الصمت زمنًا طويلًا، أفكِّر كيف تنحدر تلك الأرض وتغوص إلى أسفلَ مكوِّنة حفرة في وسطها، وكيف يرتفع أحد طرفيها عاليًا في تلٍّ به أشجار. ثم ضحكت، وانتصبت واقفًا بسرعة: «أعتقد أنكِ على حقٍّ يا ماري، سوف نشتري تلك الأرض ونقيم فوقها خمسة منازل عظيمة رائعة ... بلدة كاملة جميلة في حالة حركة، وسوف ترين، سيتمنى كل إنسان في العالم أن يعيش بها.»

قالت: «أوه يا روبي، أحيانًا تجعلني حزينة للغاية وأود أن أبكي حتى أموت.»

«انتظري فقط، لسوف تحبينها عندما تشاهدينها. ليس بوسعك أن تريها الآن، وهذا ما يجعلك تخافين.»

قالت: «ولكن هذا ليس كل ما في الأمر ...» وانسابت الدموع على وجهها قبل أن تخفي رأسها.

قلت: «كلَّا يا ماري ... كلَّا ... سيكون كل شيء على ما يرام ... وسوف ترين.»

الفصل السابع

هذه المرة قُمت بكل شيء على وجهٍ مختلف، ولم أترك شيئًا لأحد. فعندما وصلت إلى الأرض الجديدة بعد أسابيع قليلة من شرائنا لها، قضيت الجانب الأكبر من اليوم الأول في إعداد وطلاء لوحة هائلة في حجم سيارة النقل ذات الصندوق الخشبي، وفي نهاية اليوم التالي كنت قد أقمتها بالقرب من الطريق الرئيسي، بعد أن ثبتها جيدًا في قواعدَ من الخرسانة. كانت تحمل الكلمات التالية:

مرحبًا بكم في قرية أوريلي
مستعمرة جديدة من ٥٠٠ منزل
صمَّمها أستاذ العمارة البارز

روبي روي
أوريلي

وبين رقم ٥ والصفرين المجاورين له وُضعت علامة عشرية صغيرة جدًّا في عنايةٍ بحيث لا يلحظها سوى العلماء، وعندما خطوت إلى الوراء لأُصفق لما فعلت، وجدتني مضطرًّا لأن أعترف بأني نجحت في أن أكون صادقًا من الناحية الفعلية ومضللًا كبيرًا في الوقت نفسه، وأيقنت أن كلَّ مَن سيمر بهذه البقعة سيتصوَّر أن مدينةً جديدة مذهلة ستُنشأ في هذا المكان — وهي الحقيقة على أية حال — فلم يحدث أبدًا أن صنعتُ شيئًا عاديًّا أو شائعًا، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أني سأُحقِّق أحلامي في العظمة، مهما كانت ضخامتها. كان مصدر قلقي الوحيد، استنادًا إلى تجربتي السابقة، هو أن ما أتكهن به الآن سوف يُقلل من ذلك الفيض الهائل الجميل في المشاعر الذي ستبعثه في قريةٍ يتم بناؤها لأول مرة على أُسسٍ سليمة، رغم أنها لا تضم في الواقع سوى واحد إلى مائة من العدد المنتظر.

وما كان بوسع أحدٍ من المارة أن يعرف أني لا أملِك سوى خمسة أكرات؛ فقد كانت قطعتي محاطةً بالمروج وحقول الحنطة والبساتين والمراعي، وكان من السهل أن يُفهم من لافتتي أن أراضيَّ تمتد ميلًا في كل الاتجاهات.

كان الموقع جميلًا، حتى التراب كانت تبدو علية الجدة، لكن لم يكن هناك من سبيلٍ لإنكار ضرورة العمل اليدوي؛ لأنني رأيت في كل مكان فجواتٍ لا بد من ملئها حتى يصبح المنظر كله في صورة أفضل؛ فليس هناك شيء لا يمكن مضاعفة طاقته بمجرد دفعةٍ صغيرة من جانب الإنسان، وكنت دائمًا تواقًا لأن أفعل هذا، كما كان شأني الآن، وأنا هنا أفكِّر في الصورة التي سأعطيها لهذا المكان. نحيت جانبًا صورًا مختلفة لمستقبل هذه الأرض، واستقر رأيي أخيرًا على منظرٍ ساحر أردت أن أراها عليه.

وهذا ما يفتقده الناس العاديون، بل والمعماريون العاديون، وهو أن يصنعوا شيئًا على هواهم، كما يريدونه بالضبط. فهم لا يملكون للأسف الشجاعةَ لمواجهة الفراغ وإطلاق العِنان للخيال، فلا بد أن يُقال لهم ما يتعيَّن عليهم عمله، أو يقرءوا ما يجب أن يفكِّروا فيه، أو يقلِّدوا ما عُمل من قبل. أنهم ييأسون بسرعة، رغم أن بوسعهم، هم أيضًا، أن يتبينوا ببساطةٍ ما هو مطلوب. بوسع أي إنسان أن يُجسِّد العصرَ كلَّه في أكثرِ الأشياء ضآلة؛ لأن كل الأسرار تمتزج فينا جميعًا بالارتشاح. علينا فقط أن نعمل بأمانة، عندئذٍ سنُقدم الإجابة، ولو دون أن ندري بأمرها. (أسميتها بـ «الإجابة»، لكن هناك منذ القِدَم أسماء أخرى لها؛ فقد وصفها ليوناردو دافنشي بأنها «الخط الذي تتولَّد عنه كل الخطوط دون أن يُرى».)

وبعد أيام قليلة من إقامة لافتتي، مضيت إلى أقرب المدن الكبيرة (بلدة وابو، إيلينوي، وتعدادها ٥٠٠٠ نسمة) لأُقابل بائع مواد البناء المحلي. وألفيته قد سمع عن لافتتي، وزعم أنه يعرف كل شيء عن قرية أوريلي، وقال لي بابتسامة متلهفة غطَّت وجهَه المتورد، إنه كان مُعجبًا بعملي «منذ سنوات طويلة».

قال: «لا أستطيع أن أُعبِّر لك عن الشرف الذي ينالنا بإقدامك على العمل هنا.» وأضاف أن شركته المسمَّاة بمؤسسة سليد، يُسعدها أن تمدني بكلِّ ما أحتاج إليه. كلُّ ما يتعيَّن عليَّ أن أفعله هو أن أتصل به تليفونيًّا وأملي عليه طلباتي، وعندئذٍ أتلقاها في نفس اليوم. وقال: «ربما تظن أننا هنا ضئيلو الشأن، لكنك تُخطئ في هذا … فقد قمنا بمشروعاتٍ كبرى مثل خزان كوبور، ولعلك سمعت عنه، ومبنى لانجستون واكس. وأنا واثق أنك ستجد أسعارنا تُنافس كلَّ ما عداها في المدينة، ودعني أسرُّ إليك بشيء … لسوف تجد أن التعامل هنا مع مفتشي الولاية أفضل منه في أي مكان آخر إذا ما استخدمت التُّجار المحليين.»

أكدتُ لمستر سليد أني أكون سعيدًا جدًّا بالطبع إذا ما «استخدمته»، على حد تعبيره، فهزَّ يدي في عنفٍ وربَّت على كتفي مرة قائلًا: «لن تأسف على هذا أبدًا يا روبي — لعلك لا تعترض على مناداتي لك باسمك الأول ولك أن تناديني بالمر فقط — فسوف أعمل على أن تتلقى كلَّ ما تحتاجه، وبسرعة أيضًا. إن بعض شركات شيكاغو تنقل عربةَ الرمال إلى هنا في يومين، وأحيانًا في ثلاثة، بينما نستطيع نحن أن نمدك بها في دقائق، أجل دقائق … والآن … ما رأيك في تناول طعام الغداء … يا للجحيم، إنك تبدو كأنك ستموت جوعًا.»

كنت أعرف بالطبع أن مستر سليد لم يسمع عني مُطلقًا من قبل، ولم يرَ ما بنيته على الإطلاق، لكنه سمع تعليقًا على لافتتي وظنَّ أن مَن يضع لافتةً بهذه الصورة جدير بأن يعمل معه، لكني كنت راغبًا في أن يتقبلني الآخرون عن إيمان ولو كان هذا الإيمان هو إيماني أنا، مطبوعًا بحروف سوداء كبيرة فوق لافتة مثبتة على حافة الطريق. ثم أن أحدًا لا يمكنه أن يُطالب الآخرين باحترامه طبقًا لشروطه هو، فيجب أن يترك الشروط للآخرين، ولكلٍّ منهم شروطه الخاصة. كان مستر سليد يؤمن باللافتات كما كان المسيحيون الأوائل يؤمنون بالمعجزات، ولست أحمل عليه، فعلى الفنان أن يتقبَّل كل شذوذ أينما وجده.

لكني لا أكون على سداي إلا مع الأشكال لا مع الناس؛ ولهذا سرعان ما كنت عاكفًا على العمل أمام لوحة الرسم، أُصمِّم المساكن الخمسة التي ستُكرم بها أرضي. في البداية كومت اثنين هنا ثم هناك، وجعلت واحدًا كبيرًا يشرف على الجدول ليبدو يانعًا خلال حائط زجاجي عند الواجهة الخضراء المنحدرة للتل القائم على الجانب الآخر من المياه. لكني ألقيت بهذا المشروع جانبًا. ثم صمَّمت شكلًا مترابطًا دون نظام يضم كلَّ الأبنية الخمسة، بحيث يؤدي الواحد منها إلى الآخر، ويكون المحيط الخارجي للشكل العام مثنيًّا إلى الداخل في الوسط. لكن هذه الفكرة لم تعجبني أيضًا؛ لأن الأرض في الخارج كانت جميلة وما كنت أريد لما أضيفه إليها أن يجذب الاهتمام بعيدًا عنها. والتجأت إلى سقوفٍ على شكل أجراس، فوضعت كلَّ واحد منها بشكل عفوي منحرفًا عن الآخر في صورةٍ بدت كأنما حطت الصدفة رِحالها في المنطقة، لكني شعرت أن هذا خداع؛ لأنه يتضمَّن أنني — أنا الصانع، الإنسان المسئول — لم أكن موجودًا، وثرت على هذه الخطة ومزقتها إربًا خوفًا من أن تغريني عندما تتعقَّد الأمور. وعندما فشلت في العثور على حل، جعلت أسير ليلًا في أنحاء الأرض وأنا أفكِّر في أنه سيكون من المستحيل إرضائي، وأن كلَّ ما قد أُشيده سيكون إساءة لا تُغتفر للخُضرة اليانعة ولحاء الأشجار البني والتراب والصخر والمياه المندفعة. وحطًّا من شأن كلِّ ما أوجدته في لحظة اليد الطولى لتلك السلسلة من الأحداث المسماة الطبيعة.

كيف يمكنني بحق الشيطان أن أحدث لهذا المكان، أنا الآخر، كما حدث له في العصر الجليدي، تاركًا أشياءَ من بينها هذا الجدول وتلك الصخور، وهذه المياه الرقراقة وذلك الجسر، بينما أنا لست أكثر من فأر دعي أحمر الجلد يتفوق قليلًا في المكر، ولا يملك جبالًا جليدية تتصدع رهن إشارته. بدوت ضئيلًا للغاية في حاجة إلى كلِّ ما أملك من أعصابٍ كي أواصل الحياة بين كلِّ ما هو مصنوع من قبل، فما بالكم بمحاولةِ إحداث تغيير أتذكَّره فيما بعدُ بالفخر؟

لكن الإنسان يتذكَّر في لحظاتٍ كهذه أن كل الأشياء مصنوعة، كلها نتاج رغبتها الذاتية، أو نتيجة ظروف تطلَّبت وجودها وأوجبتها، أو هي النتيجة الأخيرة لوحدة سعيدة تألَّفت بين كل هذا أنها التسوية النهائية نفسها بين رغبتها وبين الممكن. وهكذا عندما هدأتُ وتركت مشكلاتي تغوص كالطعام في قناة الهضم الذهنية ولدت فكرة جديدة، وبزغت ملامح شكل، بعض أجزائه واضحة، والبعض الآخر غامض تمامًا. لكن الآن، بحق الإله، أصبح لديَّ ما يكفي لأن أبدأ على الأقل، وأقبلت على العمل بقوة لن يدركها سوى مَن ينكر ذاته ومعتقداته ورغباته الشخصية. كنت عبدًا لحلمٍ شفاف في جمجمتي، ولم يكن لشيء آخر من سيطرة عليَّ، ولا حتى ماري، حبي، التي كانت تظهر صباحًا ومساءً حاملة إليَّ الطعام.

من الصعب أن أتحدَّث عن إهمالٍ ما لماري من جانبي، وإني لفي حاجة إلى قدرتكم على الفهم لأتمكَّن من هذا. تصوروا يدًا تظهر فجأة تحمل صفحة، أو وجهًا جميلًا تملؤه عينان عسليتان كبيرتان، وابتسامة بيضاء سعيدة، وسط رؤيا من الأسمنت والسقوف، وأجهزة التدفئة، والسياج والقواعد، وكل الأشياء الدنيوية الأخرى التي تبدو لي، بصورة سحرية، وحقيقية تمامًا طول قدم إنسان وخطوته الكاملة في رَدهة، وعرضه الذي ينثني عندما يكون جالسًا وما يتطلبه ذلك، والحوض الذي يستخدمه هو وزوجته، وكل مكوِّنات «منزل» يجب أن يجري تنظيمه وفقًا للمكان الذي سيُقام فوقه.

كانت ماري تساعدني في ألا أتجاوز الحد. هل أنا جائع؟ فتطعمني. أأرغب في النوم؟ فتَسوقني إلى المنزل لأستريح يومًا كاملًا. أأنا مُتسخ مكتئب، يخدرني اليأس؟ فتقترح عليَّ حمَّامًا. كانت تمدني بالسيجار، وتُربِّت على روحي بحبها، وتُحدِّثها بأني ما زلت مُهمًّا لها رغم أني قد نسيتها مؤقتًا. كانت تطلق العِنان لعقلي دون أن ألحظ، وكانت بالطبع دائمًا جميلة، حتى عندما تلحظها نظرات عقل منشغل تمامًا بشيء لا علاقة له بها. هل تفهمون؟ ألا يُفضِّل قاطع الأخشاب العمل بين الزهور المتفجرة على أن يكون مُحاطًا بترابٍ خامد

لا يلهم شيئًا؟ كانت ماري شمسًا، تُتيح لي أن أخلع سترتي المتهدلة، وأعني بذلك ذاتي، وأعمل حُرًّا، دون عائق، في دفء رعايتها.

قالت مرة: «رأيت تصميماتك هذا الصباح يا روبي بينما كنت تتناول إفطارك، وأعتقد أنها جميلة للغاية، ولا أكاد أستطيع صبرًا عليها حتى تنتهي … كم تظن سيستغرق ذلك؟»

قُلت: «لا أعرف، وإني لسعيد أنكِ أُعجبت بها.»

«إنها تبدو أكمل ما تكون لهذا المكان. كيف توصَّلت لهذه الفكرة بحق الشيطان؟»

قلت: «استوحيتها من الشكل الخارجي للمكان.» ورغم أن هذا لم يكن حقيقيًّا، فقد كان محتملًا، وقد أرضاها.

كان المشروع ضخمًا، لكني كنت أعرف أن تنفيذه أمرٌ يسير. ففي الوسط وضعت المُولِّد الكهربائي وقاعة ترفيه كبيرة ومدرسة، وجعلتها جميعًا في كرة واحدة كبيرة مستديرة سوف تطن بالنشاط بلا انقطاع. ومن هذا «المركز» تمتد خمسة قضبان من الخرسانة يغطيها بلاستيك أخضر شفاف، يتقاطع كلٌّ منها مع منظرٍ يستحق المشاهدة — أخدود انتثرت فوقه أوراق الأشجار، حنية نهر، غيضة من أشجار الدردار، مرج أصفر — ويمتد حوالي خمسين ياردة حيث تدور بلاطة مستديرة في بطء، كما هو الشأن في منزلي، لكن البلاطة هنا أكبر ولا تقتصر الحركة على طابق واحد؛ فهناك طابق ثانٍ يدور أيضًا في اتجاه عكسي لدوران الطابق الأول. وعلى المحيط الخارجي تُقام المنازل، قممًا دوارة تدور حول نفسها في سرعةٍ فتبدو أشبه بمظلات مخروطية إلا أن سقوفها مسطحة يتغير بدورانها الضوء الذي بداخلها. وتحت أماكن التقاء القضبان بالبلاطات تتجمع كل التوصيلات الكهربائية وأنابيب المجاري والتدفئة، وتقوم الأخيرة بإذابة الجليد والثلوج على شريط مستطيل خارج الغطاء البلاستيكي، فتُمهِّد بذلك طريقًا للعربات دون جُهد. وتحصُل العائلات الخمس بواسطة تنظيم تعاوني على حاجتها من المياه والكهرباء والخدمات الصحية، والملابس والترفيه … إلخ، ويمكنها أن تستأجر من مدخراتها مهندسين للصيانة بصورة دائمة. ولن تكون هناك من حاجة إلى عملٍ من أعمال الفلاحة. فلن تكون هناك حديقة، ولا أعمال تشذيب بالتالي، وسيزدحم الجدول والنهر بالأسماك، وسيؤدي إضافة خزان صغير إلى تكوين بحيرة عريضة حول منزل «الكرة» الكبير، في الوسط، الذي يضم كافة الخدمات. أصبح لدى المجتمعِ دُوار كامل، لا يتأثَّر بالطقس، لكنه شديد التلاحم بالأرضِ بحيث يبدو جزءًا من المنظرِ الطبيعي كلِّه. وكان المقرَّر أن تُشيَّد الأجزاء الصُّلبة من الصخر والخرسانة، مع الزجاج والبلاستيك، والدعامات الخشبية الضخمة التي سيتكون

منها البناء، ولن تشعر العائلات بأنها جزء من هذه الأرض الجميلة أيضًا وحسب، فلسوف تتحرك بصورةٍ مستمرة وسطها.

وفي داخل «الكرة» كنت أنوي أن أضع كافة أنواع الآلات التي «ستوصل» الأشياء إلى كل منزل على حدة حسب الطلب بواسطة حزام تحويل مغطًّى يمتد في كلٍّ من القضبان الخمسة. فهناك على سبيل المثال ثلاجة كهربائية هائلة بها منتجات الألبان الطازجة — من لبن وزبد وبيض وجبن — وجهاز ذاتي الحركة قادر على أن يُقدِّم عددًا محددًا من الوجبات البسيطة. وهناك محلات تخزين تُقدم البضائع — البقالة والأدوية والخردوات والأدوات الحديدية واللوازم الجافة والمشروبات الكحولية وغير الكحولية بلمسة إصبع لزرار. وهناك أيضًا مغسل أوتوماتيكي ومنطقة لتجفيف الغسيل يمكن للعائلات استخدامها، وقاعة عرض للأفلام السينمائية، واستاد صغير داخلي وحوض سباحة ومكتبة ومحل لبيع الكتب والمجلات. ويمكن إدارة هذا كله وصيانته بواسطة الرجلين اللذين ستُتاح لهما السكنى مع أسرتيهما في الجانب الخاص بهما من «الكرة». وليست هناك من ضرورة للمبالغة بشأن «الآلات»؛ فهي ليست أكثر من غُرف تخزين تلتقط منها السلع لتُسلم إلى طالبيها. لكنها تُحقق وفرًا كبيرًا للعائلات المنتفعة؛ لأن اللوازم التي تقدمها يمكن شراؤها جملة عندما تكون الأسعار منخفضة، ثم تُخزن حتى الحاجة إليها. أما المواد التي تتباين تباينًا كبيرًا من شخص إلى آخر حسب الذوق، فستبتاعها كل أسرة لنفسها من الحوانيت الخارجية.

كنت مسرورًا من الصورة التي تمخَّض عنها المشروع؛ فقد كانت الكرة تتسع لأغلب الأشياء اللازمة للحياة الحديثة، وبذلك أصبح من الممكن استغلال كل مساحة المنازل نفسها في المعيشة والراحة. فلا يضم المطبخ — على سبيل المثال — سوى الأطعمة الخاصة التي تتفق وذوق كل أسرة، وبهذا أصبح في إمكاني أن أجعل الثلاجة الكهربائية والدواليب والموقد والفريزر في أحجام أصغر، أكثر جمالًا. كانت هناك حاجة فقط لمُنظِّف ومُجفِّف صغيرين للطوارئ. وهكذا كان بوسعي أن أُصمِّم مائدة كبيرة منبسطة يمكن أن تمتد عند الحاجة إلى منطقة تناول الطعام وتهيئ مكانًا فسيحًا لكل الأشياء التي تحتاج إلى مساحة: ألعاب المائدة، وتناول الطعام، والاحتفالات ... إلخ. أما غُرف النوم فتلزمها أماكن لحفظ الملابس الخاصة بفصل واحد فقط من فصول السنة؛ لأن «الكرة» تضم غُرفًا محكمة الإغلاق لا ينفذ إليها الهواء ومجهزة بوسائل مقاومة الحشرات، وكان بوسعي أن أُهيئ بها أماكن للجلوس والعمل فأحيل كلَّ غرفة منها بذلك إلى خُلوة خاصة. ومن شأن المساحة المخصصة للمعيشة والمدخل المسقوف أن يخفِّفا من التوتر، يمتصا الصوت، بل ويساعدا،

بالتصميم الدقيق، على إيجاد مجالات للموسيقى والتليفزيون والحديث والقراءة بحيث يمكن لثلاثة أو أربعة من هذه النشاطات أن تتم في وقت واحد في نفس منطقة المعيشة الواسعة، دون أن تتداخل في بعضها البعض. كانت هناك «جدران للكتب»، و«ساحات رياضية»، يمكن أن تفتح جوانب كاملة منها على الخارج بحيث لا يصبح هناك من حائل سوى الستائر، ويمكن أن تُغلق غلقًا محكمًا، في حالة البرد، بمجرد الضغط على زر.

كنت معجبًا بمشروعي للغاية وتمنيت لو أمكنني أن أضع عشرين منزلًا على الحافة المستديرة بدلًا من خمسة فقط كما أعلنت، لكنني عندما أطلعت ماري على رغبتي قالت بروح عملية: «أليس من الأفضل أن ننتظر حتى نرى إذا ما كان أحد سيبتاع الخمسة الأولى؟»

لماذا يا ماري؟ لسوف تكون هذه الأماكن حلمًا لمن يعيش فيها.»

قالت: «أعرف يا روبي، لكن لا بد وأن يكون الناس قادرين على الإيمان بذلك.» وألقت بنظرها على الصورة التي رسمتها للموقع كله كما يبدو من أعلى. وأضافت مبتسمة: «بصراحة، إنه يبدو خياليًّا بعض الشيء.»

سألتها في حذر: «لماذا؟»

قالت: «حسنًا ... لا بد وأن تعترف بأنه ليس ما يخطر على بال المرء عادةً عندما يفكر في المسكن، لسببٍ أساسي وهو: أين ستجد المرأة حديقتها؟ أجل أنت لم تفكِّر في ذلك مطلقًا، أليس كذلك؟ فلست تريد أن تزحم مشروعك بحديقة؟ سبب آخر: أين ستُوضع الدواجن؟ في الخارج أم في الداخل؟ ليس في هذه الجاراجات، وهذا أيضًا لم تفكِّر فيه، أليس كذلك؟ ثم ماذا عن شَيِّ الخنازير في الهواء الطلق؟ أين يقوم الرجل بدور رئيس الطباخين ويُعِد شرائح اللحم؟ ليس هناك من مكان لحفرة صغيرة لشي اللحوم، أليس كذلك؟ هل فكَّرت في الدراجات أو أسطوانة الانزلاق وحاصدة الأعشاب والجواريف وأماكن حِفظ المكانس والصابون؟ أوه، أجل، أعرف أنك أعددت صالةً لعرض التحف الفنية، وقاعة للموسيقى تَسع بيانو ضخمًا، وغُرفًا للقراءة، ولكن ماذا عن تلك السجادة الكبيرة من جلد الدُّب ... أين يرتمي الناس أرضًا ويتبادلون الحب بعيدًا عن عيون الأطفال؟»

ورفعت يدها إلى فمها، ثم انفجرت ضاحكة وهي تحني رأسها: «أوه يا روبي، روبي ... ليتك ترى وجهك ... لم يكن يُقدَّر بثمنٍ، وقد بدوتَ كأنك قد ابتلعت لسانك كلَّه ولم يَعُد بوسعك أن تبتلع المزيد ... آه، ها، ها انزعجت، أليس كذلك؟»

طاردتها في أنحاء الخيمة المؤقتة وأدرتها على وجهها فوق سرير صغير في الركن. وقلت لها ويدي تتلمَّس بشرة ساقها الناعمة أسفل جونلة في لون الشكولاته: «بلا سراويل مرة أخرى؟»

غمغمت: «كان الجو حارًّا، وظننت أنك ستكون مشغولًا فلا تلاحظ شيئًا.» وتَتابع خريرُ ضحكاتها وأنا أربِّت على الشكل الناعم المستدير العاري أمامي. قالت وهي تتلوى لتتخلص من يدي: «كفى يا روبي، كُفَّ عن هذه الدغدغة. الآن قبل أن أغضب.» وقاومتني بعنفٍ بضع دقائق، لكني لم أتوقف، وسرعان ما استسلمت لنشوةٍ فائقة وجعلت تغمغم في بطء: «همم ... الآن، قف ... روبي ... الآن.»

عندما أدرتها كانت كلها فمًا ناعمًا ومستعدة لاستقبالي، قوَّتي وكلِّي، قدْر ما أستطيع أن أعطيها في سعادة، وقد أعطيتها أفضلَ ما أستطيع؛ لأني كنت أحبها، أوه يا إلهي، كم أحبها! كانت كالخمر للإنسان في الشتاء.

ورقدنا في هدوءٍ فوق الفراش الذي يصر لأي حركة، وجعلنا نرقب خفق مشعلي فوق المكتب في طرف الحجرة.

قالت في حزن: «أوه يا روبي، لسوف تكون غاية في الجمال. ليتها كانت مكتملة لأراها الآن.»

قلت: «ماري، لسوف أنتهي منها من أجلكِ بأسرعِ ما أستطيع. ولسوف تكون لكِ وحدك ولا أحد سواكِ.»

انتصبت جالسة وقالت مهمومة: «أتمنى ألا يكون الأمر كذلك. وأن يكون لدينا مشترون كثيرون تزدحم بهم الطرق في الخارج كما يحدث للاستاد في أكتوبر.»

سألتها مبتسمًا: «ألا يخلو تمامًا في أكتوبر؟»

قالت: «بالطبع لا يا غبي. ألا تعرف أن ذلك موعد المباريات الدولية؟»

تأملتها لحظةً في صمت. كيف أخبرها أنها كل سعادتي، والدفء الوحيد الذي يحيط بي، والأمنية التي لا أستطيع أن أعوِّل على سواها حتى وأنا بعيد عنها. فبجوار ماري فقط، يمكن للمرء أن يصنع شيئًا مثل «مجموعة الكرة»؛ لأنه بدونها لا يكون ثمة معنًى للفعل، للخلق، للعظمة — فلن يكون هناك مَن أسعى لإرضائه. لم أتناسَ بالطبع أنها لم تكن تفهم ما أفعله دائمًا أو تقدِّره. لكني أفعله مع ذلك من أجل عينيها — الخرسانة والخشب والمرافق، وسقيفة المدخل، والأماكن المغلقة وكل شيء.

وعندما أصبحت الفورمات في أماكنها، دبَّرت الأمر بحيث تأتي عربات الأسمنت عند الغروب، ليراها ابني ويتعلم ويغمس يديه في المزيج الرمادي المبتل قبل أن يتحوَّل إلى بلاطة

تحت الأقدام. وفهم الصبي وعرف أن الأسمنت عجينة يمكن للمرء أن يشكلها كما يشاء وأنه، ككل شيء آخر، عبدٌ مطيع للقالب الذي يختاره له الإنسان. كنت أريده أن يعلم أن الإنسان هو صانع كل تكوينات الأسمنت التي يراها، وأنه لا يوجد شكل سابق على الأسمنت نفسه، وقد فهم هذا على الفور ويده في الخليط الرمادي السائل ... استوعب الحقيقة دون أن يفكِّر فيها. وأراد أن يعرف على الفور لماذا تأخذ الأشكالُ هذه الصورة دون غيرها.

هناك الكثير الذي لا يستطيع الرجل أن يقوله لابنه، هناك ذلك الجزء الأسفل من جبل الثلج الذي يجب أن ينتقل دون إيضاح. إنه انتقال حسَّاس، رفيع كأحد خيوط الزمن، لكنه عريض مثل الجو في الواقع الذي يعيش فيه الصبي. فتلك الأشياء التي أدركها بمشاعره ستُشكِّل وجدانه في المستقبل، وسيكون ابني مؤهلًا، مكافحًا يصعب خداعه، قد عقد العزم على أن يتصرف طبقًا لإرادته الخاصة وذوقه. لا يمكنني أن أقول كم أصبحتُ أحترمه للغاية من الآن. إنه أفضل الصبية، بطبيعته، ولست أنسب لنفسي فضلًا في ذلك، سوى أنه ثمرة حبي لأمه. إنه يحمل اسمي، وأنا أحمل اسمه، ويكفي هذا لأن يجعلنا نقف سويًّا، رغم أن الزمن يفصل بيننا، وسيكون هذا شأنه دائمًا. إنه مِلكي، وأنا مِلكه، هذه هي الرابطة البدائية القوية التي تجمع بيننا، وهذا هو السبب في أننا نتقبل بعضنا البعض تقبُّلًا تامًّا، والقبول هو أقوى أنواع الحب بين الرجال.

ينتابني القلق دائمًا عندما أبدأ في البناء. إن الأرض أمامي، والمشروع، لكني أتساءل عما إذا كان من الممكن تحويله إلى واقع؟ وأسرع دائمًا خوفًا من أن يتضح خطئي، ويتبين أن أفكاري جميلة لكنها مستحيلة التحقيق، فهناك دائمًا الخوف من أن تفشل حيلةٌ ما، ويحتضر الشيء الجميل الذي يتوقَّف على هذه الحيلة قبل أن يُولد، وقد تسبَّب في اختناقه عقلٌ مخطئ. لهذا اندفع في البداية لأُشيد شيئًا ما بسرعة، فعندما أرى القواعد أو الأساس أو الأرضية، أيًّا منها كان الأول، يصبح لدي شيء محسوس يسكِّن من شكوكي المرعبة، ويمكِّنني من أن أواصل العمل معتمدًا على نفسي كالعادة، بالإضافة إلى ما تم عمله بالفعل.

إنني أعلم أن قلةً من الناس ستفهم هذا، لكن الأمل يحدوني في أن يكون هناك في مكانٍ ما مَن جرَّب النشوة التي يشعر بها المرء عندما يصنع شيئًا فكَّر فيه بمفرده، ولا يصنعه أحد غيره، دون أن يكون أمام تاريخ من الأخطاء السابقة يتعلم منها. إنها دائمًا مقامرة، ورغم إمكان التقليل منها بالموهبة والثقة والعبقرية الإلهية، فإنها تظل مقامرة إلى أن تتم.

وهكذا راقبت الخرسانة على مقربة، أشرفت على بناء الفورمات، وعمليات الخلط والصب، ثم انتظرت بجوارها ليلةً كاملة حتى جفَّت، وفي الصباح التالي مزَّقت عنها الخيش

لأرى النتيجة. كان كل شيء على ما يرام، ولم يكن هناك أساس لمخاوفي ... والآن هل تدور البلاطة؟ هل تحتمل الخرسانة الثقل الذي قدَّرته لها؟ أكَّدت لي حساباتي أنه لا يوجد هناك شكٌّ، لكن ما هي الحسابات في نهاية الأمر؟ أليست سوى قياسات تعتمد على ذهن إنسان؟

لهذا يجب أن أُسرع من جديد بالخطوة التالية، وهكذا يسير الأمر. فعندما تكون خالقًا، فإنك لا تملك سوى ما فعلته فحسب، ولا يصل الفجوة التي تفصل بين ما تم عمله، وما يجري عمله، وما سوف يُعمل ... سوى عذابك أنت نفسك ... هل تفهمون؟ إن العضلة الذهنية في رأسك هي وحدها التي تلم بكل أطراف الأمر، التي ترى الشكل بالصورة التي سيكون عليها عندما ينتهي. فإذا ما فقدتُ رؤياه، أو توانيت، عندئذٍ يختفي الأمر كله، يتلاشى من الوجود، وقد لا يعود مرة أخرى أبدًا ولهذا ليس بوسعك أن تستريح أو تهدأ ثانيةً واحدة حتى ينتهي ويوجد بصورة كاملة مستقلًّا عن جهدك. ولا يمكن لشخصٍ عداك أن يرى ما لم تفعله بعد، وهذه مسئولية كبيرة. فلا بد وأن تنطلق خلف ذلك الهدف الذي لا يمكن لغيرك أن يراه، وليكن الله في عونك لو نسيت لأنك ستفقد الاتجاه على الفور وتندفع في عمًى وعلى غير هدًى نحو لا شيء، وعندئذٍ تفشل، ويضيع منك الأمر كله، ويتحوَّل عملك إلى عدم، وتصبح آمالك ضحِكًا، وينقلب كل مكرك عليك، ويمزقك الحقد إربًا؛ لأنك خُنت نفسك، خُنت الشيء الجميل الذي كنت تتقدم نحوه، ويضيع عملك، ولا يتبقى سوى سخطك.

لكن إذا كان هذا شيئًا يجب تجنُّبه، فهو أيضًا شرطٌ يخلق الطاقة التي تحتاجها لتُكافح العالم أجمع، ما دام هو بصورته الراهنة يُقاوم التغيير، وترغمه على أن يتقبل الجديد، ويحتويك في شكله الأكبر بحيث يصبح شيئًا جديدًا مختلفًا لم يكن هناك عندما بدأت. ذلك أن الطريق الوحيد للتغيير، هو أن يضيف المرء شيئًا جديدًا من صنْعه للأشياء بصورتها الراهنة. وهؤلاء الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يغيِّروا شيئًا موجودًا بالفعل، مصيرهم إلى الفشل. أما أولئك الذين يصنعون شيئًا جديدًا يُحتم احتواء القديم؛ لأنه ببساطة أصبح موجودًا هو الآخر، فإنهم يغيِّرون كلَّ ما هو موجود. ومما يؤسف له أن هذه الحقيقة البسيطة من حقائق الطبيعة، والأساسية في الوقت نفسه، لا تدركها سوى قلة ضئيلة من الناس. إن شجرة البالوط النابتة لا تُطالب الغابة بأن تتغير على مثالها. فهي تنمو في هدوء معتمدة على نفسها في ظل شجرة أسفندان ضخمة ستحل محلها يومًا ما. فالتغيير لا يتأتَّى بالمطالبة وإنما بالإحلال، هذا هو أول قانون من قوانين الحياة. أما المطالبة فيجب أن تتركَّز كلُّها في الداخل، وإلا فإنها تتبدَّد ببساطة على الآذان الصماء

الموجودة في الخارج. فإذا أردت للغابة من حولك أن تتغير، فلا بد وأن تضغط على نفسك، لتنمو أكبر وأسرع، مثل شجرة البلوط النابتة. الزمن هو عدوك، لا الغابة.

ظل الأسمنت يأتينا يومًا بعد يوم، ونحن في استقباله: ابني وأنا — مؤسسة روبي روي أوريلي وابنه. ووددنا لو كان بإمكاننا أن نصُب كل شيء على الفور؛ لأن هذا كان أرخص، وكنا نريد أن ننتهي قبل أن يبدأ سقوط الأمطار في أكتوبر. كان المكان كله في بياض الأحجار، أينما تطلعت، دون أخشاب أو سقوف تخفِّف من خشونة الأشكال، لكن هيكل البناء كان يطابق المنظر الطبيعي، كما لو أن يدًا هائلة قد وضعت، فجأة، رفوفًا من الصخر فوق الخضرة. لم تكن لدي رافعة، أو غيرها من الآلات الثقيلة، لم أكن أملك سوى خطة، وكان من الضروري أن تكون كاملة بحيث لا يبدو لدائني أن شيئًا ما ينقُصني. كان عليَّ أن أبتسم في ثقةٍ مؤكدًا أن كل شيء يتم (من اليد للفم) لأنني أريده هكذا، ولا أحتمل أي تدخُّل من «الآلات الكبيرة المزعجة بالإضافة إلى أنني لا أحتاج إليها»، أو على الأقل هذا ما ذكرته لأكبر الدائنين، مستر سليد، الذي جاء مع مواده ذات يوم ليرى كيف تسير الأمور.

فقد قال وهو يربِّت رأس ابني: «إنه لمساعد صغير عظيم ... كل ما لديك.»

قلت: «إنه أكثر من ذلك، إنه مَن أسأل وقت الشدة، وهو لا يكذبني أبدًا.»

ابتسم مستر سليد، وقد ظنها نكتة.

قال ساخرًا: «يقولون لي إنك تفعل كل شيء بنفسك.»

قلت: «كلا، فلدي ابني هنا.»

قال: «أجل ...» وبدأت ابتسامته تفقد بعض ثقتها. «لكن أين أعمالك؟»

قلت: «لست أحتاج إلى أحد. فكل ما يحتاجه المعماري حقًّا هو القليل من قوة البصيرة.»

«مَن الذي شَيَّد لك الفورمات؟»

قلت: «أنا بالطبع، بمعونة سائقيك الذين جلبوا الأخشاب.»

«ومَن ساعدك في الصب؟»

«لا أحد ... فيما عدا سائقيك الذين جاءوا بالأسمنت.»

قهقه ضاحكًا: «يبدو أنني قدمت لك العمال أيضًا.»

قلت: «كلا، ليس الأمر كذلك. فلم يقضِ رجالك هنا في الموقع أكثرَ من الوقت الذي يقضونه في أي مكانٍ آخر يُفرغون فيه عرباتهم. الفارق الوحيد هو أني كنت مستعدًّا لهم عندما جاءوا وعينت لهم الأماكن التي يُفرغون فيها عرباتهم.»

قال: «حسنًا، أليست حيلة بارعة؟»

قلت: «كلا، على العكس ... إنها حيلة فقيرة.»

قال وابتسامته تعود في ثقةٍ أكبر: «تقصد أنها تؤدي إلى إفقاري، هذا ما تقصده.» لقد ظن أني أجري وراء الملاليم، فبدأ يحترمني.

قلت: «حسنًا، لن تتأثَّر بشيء.»

وبأيدينا العارية، ومعونة ضئيلة للغاية، بنينا كلَّ بوصة من المنزل ذي الأجزاء الخمسة، طبقًا للخطة. وبدأ من الخارج مثلما وصفته من قبل تمامًا. كان أشبه بعجلة مركبة هائلة، غاصت بين الأشجار دون أن تتلفها، وحركتها الخفيفة تهدهد الموقع كله في رقة النسيم. لم يكن هناك صوت تقريبًا، على الأقل من جانب الأجزاء المتحركة في البناء، وبدا كأن المنازل تُحلِّق على مهل وتدور كأسطوانات يحملها النهر مع تياره. أعتقد أن الحركة، بسبب بُعدها الجديد، أكثر طوعًا للجمال، من الأجسام أو الفضاء. إن الحركة تخلق التكرار، وليس هناك من شيء، مهما كانت درجة قبحه، لا يكتسب بعض الجاذبية عندما يُكرَّر بنظام معيَّن. لكن عندما يستسلم شكلٌ ما للحركة — مخروطيًّا كان أو كرويًّا أو شِبه كروي — ويكرر نفسه بذلك، تراه يزداد جمالًا دقيقة بعد أخرى، وهو يدور ببطء في أشعة الشمس. بطيئًا، بطيئًا. يتغير كل لحظة، ولا تراه أبدًا على نفس الحال. ولا يتوقف لحظة. كانت التجربة تبعث فيَّ البهجة والعجب.

وعندما اقترب الخريف من نهايته، كنا قد شرعنا نعمل في الداخل، نضع الأرائك المبنية والموائد والمقاعد والفواصل وأوعية الثريا الضخمة. وانتهى العمل في «الكرة»، وجاء دور الأجهزة الأوتوماتيكية التي صُمِّم بعضها خصيصًا من أجلي، فجعلت العمال الذين جاءوا بها يقومون بتركيبها وقد انتهزوا الفرصة ليُبرزوا مواهبهم. وخلال شهر واحد — هو شهر نوفمبر — كان آلافٌ من الناس قد توقَّفوا ليتفرجوا، بل وظهرت بضع مقالات مصوَّرة في الصحف التي تصدر في المدينتين القريبتين. وفي إحدى المقالات أطلقوا على المبنى اسم «الهولاهوب»، وسمَّوه في الثانية بـ «الحلقة النحاسية». لكن الغالبية كانت تطلق عليه اسم «عجلة أوريللي»، وما كنت لأعبأ بذلك، رغم أن التسمية أزعجت ماري.

توقفت يدها التي تحمل فرشاة الطلاء وقالت عابسة: «لماذا أشعر بالقلق؟ حسنًا، لا أعتقد أن أحدًا يرغب في الحياة على حافلة عجلة مركبة، هذا هو كلُّ ما في الأمر. ماذا لو افترض الناس أنها تدور لمجرد أن هذا هو اسمها؟ أتذكَّر كيف انزعجتُ أنا عندما قلت لي إن منزلنا سيدور حسنًا، أعتقد أن آخرين سينزعجون بالمثل، وربما لن نستطيع أن نقنع

أحدًا بأن يضع قدمه داخله عندما ينتهي بناؤه. هل سألَنا أحدٌ عن تكاليف البناء؟ كلَّا، لا أحد بين هؤلاء الأغبياء الجاحظي الأعين الذين يصطفون في سياراتهم على طول الطريق اهتمَّ بالسؤال عن الثَّمن. هكذا ترى يا روبي كيف أنهم أبعد ما يكونون عن فكرة الشراء، وهذا ما يجعلني أشعر بالقلق.»

سألتها في هدوء: «ماذا نسميها في رأيكِ إذن؟»

قالت مرتابة: «لا أعلم، لكنَّ اسمًا جميلًا مثل «المروج المتموجة»، أو «مزرعة العسل» أو «الأشجار العالية» … أوه … أي شيء عدا «عجلة العربة».»

قلت: «لكننا لم نَدعُها بـ «عجلة العربة» أبدًا … الناس هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم.»

قالت فجأة: «روبي … هل تعتقد حقًّا أنهم سيبتاعونها؟»

قلت: «بالطبع سيفعلون لماذا، إنها جميلة يا ماري، ألا تفهمين ذلك! كلُّ منزل منها يساوي خمسين ألفًا، ولسوف نتمكن من بيعها بنصف هذا المبلغ، ألا تفهمين؟ ٢٥ ألف دولار فقط.»

«أعرف يا روبي، لكن هل تظن حقًّا أن أحدًا سيشتريها؟ ألن يتكرر ما حدث من قبل؟»

قلت: «كلَّا بالطبع.» رغم أنه كان بوسعي أن أتذكَّر جيدًا كيف كنت واثقًا، كما هو شأني الآن، من تدفُّق الناس على جهودي الثلاثة الأولى.

انتهينا من التركيبات الداخلية، وكلها من الخشب والخرسانة، وكانت أعجوبة من المواد المختلفة. والخشب الطبيعي المصبوغ. ولا أستطيع أن أصف لك قدْر المتعة التي استمددناها من العمل فيها، بدقة بالغة، مُشكِّلين الأرائك بحيث تكون كل واحدة مختلفة عن الأخرى، جاعلين المساحة الداخلية لكل منزل في صورةٍ فريدة قائمة بذاتها.

أبوسعكم أن تتبينوا ماذا كان الأمر يعني لنا؟ أيمكنكم حقًّا أن تعرفوا؟ تصوروا ابنتي التي تبلغ من العمر عامين وقد وقفت بمفردها في مركز «منزل الكرة»، تقول: «ح … ل … و … ة … يا بابا ح … ل … و … ة … جدًّا.» إنها قلبي الذي يُجيب على كل الأسئلة بصوتها الصغير الرقيق، وإيمانها البريء بأن كل الأشياء يجب أن تُصنع «ح … ل … و … ة …» بقدر الإمكان، وأن كلَّ مَن لا يبذل كلَّ ما في وسعه (أو لا يستطيع) لا بد وأن يكون مجنونًا أُطلق سراحه ليفترس الأحلام البريئة للبشرية جمعاء. إنها الحلاوة ذاتها، ابنتي، التي تمتاز بخفة الروح، ولا تُشبه أيًّا من الأشياء الجميلة التي تنتمي في غالب الأمر

إلى المستقبل، وتحبني وتحب كلَّ ما أفعل بسرور وإيمان بأني ساحر وعامل حالم في آنٍ واحد، أنجح في كل مهمة أضعها لنفسي، وأنتصر في كل حرب. خسارة واحدة كفيلة بأن تسحق هاتين العينين العسليتين الصغيرتين، ولهذا أرفض أن أخسر.

إنها لبهجة الإنسان أن يبدأ وحيدًا ثم يفوز بامرأة جميلة مُحبة، ذات ساقين طويلتين وابتسامة متوهجة ولسان سريع، ثم يكتشف بعد لذاتٍ متقطعة لكن عنيفة معها، إنه لم يَعُد واحدًا، بل أصبح ثلاثة، وأخيرًا أربعة. مَن بوسعه أن يوقف أربعةً من أسرة أوريللي يندفعون نحو المستقبل؟ لا أرى أحدًا. تنحَّوا عن طريقنا.

الفصل الثامن

في أول يناير، انتهينا من البناء الداخلي في آخر منزل، واستغرقت في النوم على الفور طوال أيام ثلاثة. وعندما استيقظت كنت لا أزال عاجزًا عن القيام بأي شيء، وجعلت أطوف بالمنزل طوال اثنتين وسبعين ساعة، في ردائي الذي لوَّثه العَرق، ومضى أسبوع آخر قبل أن أتمكن من التفكير في بيع المنازل. كيف أعرضها في السوق؟ كنت مرغمًا على الاعتراف بأني لم أفكِّر مطلقًا من قبل في تسويقها رغم أني لم أذكر هذا لماري. فلم يكن بوسعي أن أفكِّر في بيع شيء من صنعي قبل أن ينتهي تمامًا، رغم أن بعض المعماريين الممتازين يستطيعون العمل على أساس التكليف، فيشيدون منازل طلبها بالفعل مستر وفقًا لعقد. لم يكن في إمكاني أن أعرض وقتي للبيع، وما أعرضه فقط هو ثمرة إبداعي. كيف أعرف أني لو بِعت شيئًا قبل أن يكتمل، لزالت كل متعة في إكماله، فلسوف يصبح مِلكًا لشخص آخر بالفعل، ولا يعود بذي شأن لدي. أنا أعرف بالطبع أنه لا يتعين أن يعمل الجميع بهذا الأسلوب الفريد — العظماء حقًّا هم الذين يفعلون — ولسوء الحظ أن العمل من أجل المتعة لا الربح يعتبر في عصرنا من شأن «الهاوي» لا «المحترف». لكني أشعر أن الشرط الوحيد للحرية الفنية الكاملة — هو أن تملك ما تصنع حتى تنتهي منه — أن تكون خالقًا مطلقًا لا مجرد خادم مأجور لدى شخص آخر. هكذا كان أغلب اليونانيين الكبار (إسخيليوس وسقراط وأفلاطون وسافو)، ثم دانتي ومونتيني وشكسبير بالطبع الذي لم يكن يملك مسرحياته وحسب، بل ويملك أيضًا المسرح الذي تُقدَّم على خشبته. وفي ميدان العمارة، كان هناك فرانك لويد رايت، الذي استطاع أن يعيش من أرباح مدرسته أساسًا. إنَّ بيع الفنان لقوة عمله بدلًا من فنِّه بدعةٌ حديثة، لم تُعرف من قبل، وأعتقد أنها بدعة خاطئة. فعندما يتحكم الفنان في عمله، بداءةً وخلقًا، وتمويلًا، بل وفي السوق أيضًا، بعدئذٍ ينفسح الوقت والمجال للعب الحر أمام عقله ويديه. فلا بد وأن يخلق عربته الخاصة إذا

كان يريد أن ينطلق بحرية في المستقبل الذي يحلم به. أيبدو هذا مدهشًا؟ هل يدهشكم أن تعلموا أنه خلْف القلب العاطفي العظيم للعبقري يكمُن دائمًا خبثُ رجل أعمال بالسليقة؟ حسنًا، إن الأمر كذلك؟ وفي غالبية الحالات يكون الجانب التجاري من هذه الطبيعة هو الذي يمده بالقدرة على أن يعمل وفقًا لطريقه الخاص، ويخلق شيئًا جديدًا، رغم أنني يجب أن أضيف أن هذه المقدرة تشل الجانب التجاري لديه؛ لأن أغلب الفنانين يستطيعون جمع الملايين بسهولة إذا ما اقتصروا على إنتاج التفاهات وكرَّسوا كلَّ طاقاتهم لبيعها، بدلًا من أن يواجهوا باستمرار غرائزهم التجارية العظيمة بضرورة تمويل وبيع شيء جميل لا بد وأن تغرس الرغبة في شرائه لدى الناس.

قطعت ماري تأملاتي الهادئة ذات يوم وقالت لي: «روبي، اتصل مستر سليد بنا تليفونيًّا ليعرف متى تنوي تسوية الدَّيْن، ويسأل ما إذا كنت تريد أن تدفع مرة واحدة، أو على عدد من الأقساط بفائدة ستة في المائة.» وابتسمت ماري عندما رأت تأثير هذا الكلام عليَّ؛ إذ نقلني مرة واحدة إلى عالم الواقع بقيود الثَّمن التي تكبله.

فكَّرت هنيهة، ثم قلت: «حسنًا، أعتقد أننا يجب أن نفكِّر في طريقةٍ نبيع بها «عجلة أوريللي»؛ فليس هناك من سبيل آخر للخلاص من ديوننا.»

قالت ماري: «روبي روي أوريللي ... هل تعني أنك كنت تفكِّر في عدم بيعها بعد كل هذا؟! بالطبع سنبيعها، لقد وعدتني.» كان هناك رعبٌ حقيقي في عينيها وهي تفكر لحظة. «هل تعني أنك لم تفكر في بيعها طول ذلك الوقت؟ أوه، روبي، ألا تعرف كيف ستبيعها؟ لقد وعدتني، لقد قلت إنك تعرف أننا سنتمكن من بيعها هذه المرة.»

أسقطت الملابس التي كانت تقوم بكوائها على الأرض وارتمت في أحد المقاعد. ثم وضعت رأسها بين يديها وشرعت تبكي وهي تهتز قليلًا إلى الأمام وإلى الخلف بفعل نسيجها. «أوه، روبي، لقد قلت إن هذه المرة ستكون مختلفة ... وإنك ستبيعها ... أوه، روبي، لسوف يقتلني الأمر هذه المرة لو لم يقبلها أحد ... لقد اشتغلنا جيدًا ... وهي غاية في الجمال ...»

حاولت أن أُهدئ، من روعها: «ماري، لا تقلقي، فقط لا تقلقي ... سيكون كل شيء على ما يرام.»

كان أول ما فعلت أني ذهبت إلى التليفون، وأعلمت صاحب المتجر الذي تعمل فيه ماري أنها لن تعمل ابتداء من هذا الصباح. وقلت لها عندما واجهتني في رعبٍ فورَ سماعها بالنبأ: «لا تقلقي يا ماري. لقد حان الوقت لتكُفِّي عن العمل وتستريحي قليلًا.» وأضفت

وأنا أبتسم: «ثم أنه لا بد لكِ من العناية بالطفلين وأنا أبتسم: «ثم إنه لا بد لك من العناية بالطفلين وبي، وسوف أحتاج إلى مساعدتك عندما أبيع المبنى. فستقومين بدور السمسار ... ها أنتِ قد فزتِ بعملٍ جديد يا ماري وأنا رئيسك فيه، فلا تُجادلي.»

ضحِكت فجأة بصورة هستيرية: «روبي، أنت تهذي بلا شك، إن عملي هو مصدر الدخل الذي نعيش منه، وإذا عملت معك فمن الذي سيُعطيني أجري؟ لسنا نملك سنتيمًا أحمر، ولا بد أن تعرف هذا. لسنا نملك سوى هذه المنازل، وإذا لم نبِعْها فلست أعرف ما سيحدث. كيف سنُسدِّد فواتير مشترياتنا؟ ماذا سيحدث لنا بحق الشيطان؟ لا أحد سوانا يعنيه أمرنا، أنت تعرف، وليس لنا أن نتوقَّع معونة من أحد. ليس لنا أصدقاء، أبوانا لا يعترفان بأن ما تفعله مشروع، ونحن غارقون في ديون مستر سليد حتى آذاننا. كيف سنخرج من كل هذا؟»

قلت: «سنؤلف شركة.»

كل ما كانت تستطيع هو أن تضحك، وكان عليَّ أن أعترف أنا نفسي أن الأمر يبدو سخيفًا. ومع ذلك كنت أعرف أن تأليف شركة هو الخطوة التالية لأننا كنا في حاجةٍ إلى أداةٍ مشروعة نستطيع بها أن نبيع المنازل، بأسلم السُّبل وأصحها، وما لم تكن هناك شركة مسجَّلة فإن الضرائب ستُلاحقنا في كل شيء، حتى ضوء النهار الذي ستعتبره من أرباح رأس المال.

سألتني ماري في حيرة: «ومن أين سنجد المال الذي سنؤلف به الشركة؟»

قلت: «سنستخدم القيمة الصافية للمواد. بعبارة أخرى سوف نبيع المنازل للشركة بسعر التكلفة.»

«وكيف سندفع لأنفسنا؟»

«بسندات من الشركة ... يا إلهي يا ماري، لا تنظري إليَّ هكذا مُكذِّبة؛ فهذا الذي أقترحه يحدث كل يوم. وليس احتيالًا على الإطلاق.»

«وماذا بعد الشركة؟»

«نبيع المنازل.»

«وماذا إذا لم نتمكن من بيعها؟»

«إذن نؤجرها ونقوم بأعمال الصيانة، بصفتها مصاريف مشروعة للشركة.»

عادت ماري إلى الجلوس ولكنها كانت تبتسم الآن: «يا إلهي يا روبي، هل تظن حقًّا أن هذه الخطة ستنجح؟»

قلت ضاحكًا: «ولِمَ لا؟»

ضحكت بدورها: «لا أعلم لِمَ لا، فقط تبدو لي رائعة لدرجةٍ يستحيل معها أن تكون حقيقية، ثم لو أن الأمر بهذه البساطة لكان الكثيرون قد قاموا بنفس الشيء من قبل. كيف توصَّلت إلى هذه الفكرة؟» وعاد الشك إلى وجهها.

«كنت أقرأ قليلًا في المسائل التجارية والمالية، لكني كوَّنت الفكرة كلها أساسًا عندما سألتني عما ننوي عمله، وكيف سنبيع عجلة أوريلي. أنا واثق أن الأمر مشروع، ثم يا للجحيم يا ماري، إني أعرف أننا نستطيع تنفيذها. وإذا ما ساءت الأمور، فإن المكان يسهُل تأجيره؛ لأن ما يحيط به من مناظر تستحق المشاهدة، وسيرغب الكثيرون في الحياة به ولو بصورة مؤقتة، خاصةً الشباب الذين تزوجوا لتوهم ويحبون الأشياء الحديثة، ويرغبون في كثير من المتعة.»

«لكننا على مبعدة من العمران، هل تظن أن أحدًا يمكن أن يُقيم على هذا البُعد من المدينة؟»

قلت: «بالطبع. يا للشيطان، إذا أرادوا شيئًا جيدًا فعليهم أن يدفعوا ثمنه. وأنتِ تعرفين أننا لم نَضع هذا الشيء الملعون هنا عن عمد؛ فهو المكان الوحيد الذي استطعنا ابتياعه.»

شرعت ماري تضحك في جنون، دون أن تتوقَّف إلا لتقول: «روبي روي، إذا نجحت خطتك هذه فأنت لا تُقدَّر بثمن.» ثم تعود إلى الضحك من جديد. وقرَّرنا أن نتناول عدة كئوس رغم أننا كنا لا نزال في وسط النهار، ولم يكد يحين موعد العشاء حتى كنا قد توهَّجنا وتورَّدت وجوهنا بالآمال الكبار في شركتنا الجديدة. بل إن ماري طالبت بلقب المدير لها، وعهِدت إليَّ برئاسة مجلس الإدارة. وكنا في حاجة إلى عضو ثالث، وقرَّرنا بعد مناقشةٍ أن نستبعد مستر سليد، وفضَّلنا عليه أحد المحامين في منصب السكرتير، رغم أنه لن يحوز أسهمًا.

بدأ كل شيء في الأيام القليلة التالية كالحلم؛ إذ وجدنا محاميًا وأتمننا إجراءات تأليف شركة مسجلة خاصة بنا أسميناها «شركة Scupper».[١] كان الاسم من اختيار ابننا الذي أُعجب برنينه، فقرَّرنا أن نستخدمه تفاؤلًا به. وفي مكتب المحامي بدت ماري كما لو كانت

[١] الكلمة تعني الثُّقب الذي يكون في جانب السفينة ويُستخدم لنزح المياه عندما تُصبح مهدَّدة بالغرق — المترجم.

مخدرة، ورغم أنها كانت جميلة بالطبع، كما هي دائمًا، وقد ارتدت رداءها الوحيد حسن التفصيل، وشعَّ وجهها بالدفء والسحر. كنت أعرف أنها لا تفهم شيئًا مما يدور، وتُتابع ما يحدث لأجل خاطري، تأمُل في الأفضل وتتوقَّع الأسوأ، ويغشاها الرُّعب حتى ليكاد الشلل يُصيبها. ويبدو أن النساء منذ تحريرهن لم يهضمن بعدُ حريتهن، ويبدون دائمًا في خشيةٍ من أن يُلقى القبض عليهن لو فعلن شيئًا؛ لأنهن لا يؤمنَّ بعدُ حقيقةً بحقوقهن. فما زال في أعماقهن إحساس غامض بعدم الأمان، ولعل ماري أكثرهن في ذلك. حاولت أن أبتسم لها ونحن نوقِّع الأوراق، آملًا في إقناعها بأن كل شيء يجري على ما يرام. لشد ما هي رائعة ماري، حتى لأود أحيانًا لو أُغطيها بيدي وأحميها من كل خوف، لكني أعرف أنني لا يجب أن أفعل؛ لأنها عندئذٍ ستموت غير حرة، شأنها شأن غيرها، كما تعلمون.

أخذنا الطفلين في نزهةٍ احتفاءً بما حدث، وكانت السماء كاملة الزرقة، منبسطة، مترامية، وأشعتِ الشمس الدفءَ في الغابات حيث جلسنا جميعًا فوق ملاءةٍ نشرب ونأكل ساندويتشات اللحم. هل تعرفون كيف تشعرون عندما تنجزون شيئًا لم تكونوا على ثقةٍ منه ثم تتبينون فجأة، بعد إتمامه، أنكم كنتم على صواب؟ هكذا كنت أشعر، كنت سعيدًا مسترخيًا، حتى كدت أسقط في النهر، أتشرب سِحر زوجتي ورضاء ابني الرائع وبراءة ابنتي. شعرت أني أستحقهم وأنهم جديرون بي، وأنني قد أنجزت شيئًا رائعًا سيجعل مستقبلنا كاملًا.

ابتعدنا عن المنازل الخمسة بقدرِ ما نستطيع؛ لأننا لم نكن نود أن نفكر في أمرنا، وذهبنا في تلك الليلة إلى فيلمٍ ملون كبير، وأكلنا سندويتشات السوسيس وملأنا السيارة بالفضلات.

وفي الصباح التالي أعدَّت ماري إفطارًا حافلًا، وكان اليوم سبتًا، وليست هناك مدرسة، فاقترحت علينا أن نقوم بنزهة، وانطلقنا بعنايةٍ في طريقٍ دائري عبر طرقات يغطيها الثلج الذائب متأملين الأرض التي بدت سوداء مبتلة. خُيل إليَّ أنني شاهدت بعض العشب الأخضر، لكن الأرض كانت لا تزال غارقة في سوادها كأنها تنكر ذلك الدفء الذي لم تألفه من قبلُ في الأيام الأخيرة من فبراير. وسرعان ما انتقلنا إلى الطريق الرئيسي، وبعد دقائق كنا نمرُّ بها، مثل بقية الناس مكتشفين شكلها، ودقَّتها المذهلة، وروعتها، وجمال «تشطيبها» الذي ينتظر العملاء، كان البعض قد أوقفوا سيارتهم إلى جانب الطريق، ووقفوا بجوارها يتفحَّصون منظرها. ورأيناهم يتبادلون الابتسامات، ونحن نمرُّ بهم ببطء، ثم ينظرون من جديد إليها.

سألت في حدة: «تُرى ماذا يكون هذا؟»

ابتسمت ماري: «لا بد أنها مائدة بلياردو بكراتها ذات العصي.»

قال ابننا: «لست أحبها.»

سألته: «لماذا؟»

ابتسم وقال: «تبدو غبية.»

قلت: «هل يمكنك أن تتصور أحدًا يعيش فيها؟»

قالت ماري: «كأنه سيعيش في صخرةٍ ذات نوافذ.»

«تُرى مَن بناها؟»

قالت ماري: «لا بد أنه أحد المجانين.»

وأغرق ابني في الضحك: «لا بد وأنه أحد المجانين. لا بد وأنه أحد المجانين.»

قلت مبتسمًا: «حسنًا، يسرني أني لست مضطرًّا لبيعها. هل تتصورين؟ سيتعين على أحد السماسرة أن يحاول إحضار الناس ليعيشوا هنا.»

قالت ماري في جدية: «كُف عن هذا الآن يا روبي. لست أظن أن ثمَّة ما يبعث على التفكُّه. فأنت هو السمسار، ولست أنا. فليس بوسعي أن أفعل سوى ما يُطلب مني، ولهذا يحسن بك أن تبدأ في وضع خطة عظيمة، ما لم تكن قد فعلت. أتعرف أن بيعها لن يكون بالأمرِ السهل حقًّا. فبوسعي أن أتخيَّل الأثر الذي ستحدِثه في ربات البيوت. وأراهِن أن الأسلوب الذي تتطلب من سكانها الحياة وفقًا له، سيُشعِر بعضهن بالإهانة؛ فالناس لم يألفوا أن يكتشفوا كيف يعيشون حياة الحضيض لأنهم يحبونها هكذا، كما تعرف، وتثور ثائرتهم إذا ما واجهوا بديلًا جميلًا. لقد شكَّلوا أنفسهم في صورةٍ تُطابق القبح الذي يحيط بهم، وأنت تريهم أنهم يجب ألا يساوموا، وتسألهم أن يعيدوا صُنع أنفسهم من جديد حتى يمكنهم أن يعيشوا بالطريقة التي يجب أن يعيشوا بها في أحد منازلك. كلَّا، لا أظن أن الأمر سيكون سهلًا يا روبي، وأتمنى ألا تنتظر أية معجزات.»

أردت أن أؤكد لماري أنني لا أتوقَّع أية معجزات. والواقع أني لم أكن أتوقَّع شيئًا أبدًا، خاصةً من الناس، وإذا ما بدر منهم شيء مفيد مرةً تجدني أُصاب بالدهشة. إنني أختلف في ذلك كثيرًا عن أغلبكم. فأغلب الناس يُعلِّقون الآمالَ الكبار كأنما وُجد كل شيء لفائدتهم، وربما كانوا محقين في هذا. لكني أعرف أني أقف من الآخرين موقف المعارضة، وأنني يجب أن أتوقع منهم أن يعاملوني كعدوٍّ لهم.

ركنت إلى الصمت لأني لم أرغب في إثارة فزعها بهذه المعلومات، رغم يقيني بأنها تعرفها بدورها. من الصعب أن يواصل المرء في براءةٍ طريقه المرسوم إذا اتخذ موقف المعارضة، وأعتقد أني ككل الرجال الشجعان، أحتفظ بشجاعتي عندما أتجاهل هذا الموقف، وهو أن تتقبل فكرة وجودك في المعارضة ثم تتجاهل الأمر، ولهذا تحتفظ بقدرتك على مواصلة العمل كما لو كان ثمَّة مستقبل أمامك، فتنسى أنك تعيش في خطر دائم، وتتصرف كما لو كنت وحيدًا، لكنك تتذكَّر دائمًا في خطر دائم، وهكذا ترى أنه موقف متناقض، لا تستطيع عقول كثيرة أن تواجهه، وهو بالطبع السبب الأساسي في وجودك في المعارضة. وهذا ما يسمَّى بالتوازن يا صديقي: قوتان متعارضتان في حالة توازن منسي، الكثرة تعارض القلة، بدرجةٍ من الحرية تعتمد على المقدرة على النسيان. والآن ادفعْ هذا التوازن إلى الحركة، تجدْ نفسك أمام أسلوبي في الحياة وطريقتي في البناء، وفي التفكير، تجدني أمام أسلوبي في الحياة وطريقتي في البناء، وفي التفكير، تجدني أمامك كاملًا.

قلت: «ماري، لو كنت أومن بالمعجزات لكنت مُتُّ من القنوط منذ عهدٍ بعيد.»

اغتصبت ماري ابتسامة مخيفة: «آمُل أن يسير كل شيء على ما يرام. وأتمنى ألا نواجه متاعب، هذه المرة فقط. لو يحاول الناس مرة واحدة ألا يدوسونا لأننا فعلنا شيئًا جميلًا. وبوسعهم جميعًا أن يعودوا بعد ذلك إلى اتهامِنا بالجنون، فلن أعبأ، لو تركونا هذه المرة.»

قلت: «أنتِ تنتظرين أمرًا غير إنساني عندما تُطالبين الناس بأن يعترفوا بشيء جميل ويساندوه. إن أغلب الناس مشوَّهون، وعقولهم أيضًا بالمثل. أغلب الناس لم تأخذ أجسادهم الشكل السليم، فضلًا عن أرواحهم. أغلب الناس متوحشون. قُساة وفاسدون.»

سألتني: «إذن كيف سيعجبون بمنازلنا كما تقول؟»

قلت: «لو لم أفكر في هذا، ما كانت هناك جدوى من بنائها.»

«أوه يا روبي، فقط قل لي مرة أخرى إن كلَّ مَن سيرى هذه المنازل سيبغي الحصول على أحدها.»

«كل مَن سيرى هذه المنازل سيرغب في امتلاك أحدها سيقفز المال قفزًا من الحافظات من جراء الصدمة التي تُحدِثها رؤية شيء كامل، وسوف يُقدم الناس الملايين إيجارًا لعدة أشهر، ويضحون بثرواتهم مقابل أيام قليلة يقضونها في «عجلة أوريلي الرائعة»، لكننا لن نستغلهم. فمهما قدَّموا من مال، لن نبيع المنزل الواحد بأكثر من خمسة وعشرين ألف دولار.»

انفجرت ماري ضاحكة.

قلت: «إني أتكلم جادًّا.»

وشارك ابني وابنتي في الضحك، وغدونا جميعًا سُعداء.

قلت: «بل إني أتمنى لو نتبرَّع بالمنازل ... فيما عدا أن هذا لن يكون عدلًا بالنسبة للمستر سليد.»

كنت أعرف مع ذلك أني أحتاج إلى الدعاية، قبل أن أتمكَّن من بيع أي شيء لأي شخص، وما كان لي أن أتوقَّع مجيء كثيرين لرؤية منازلي — وكلما كان عددهم كبيرًا كان هذا أفضل — ما دُمت عاجزًا عن تعريف الناس بأمرها. كان عليَّ أن أجتذب كلَّ فرد في المنطقة ليلقي نظرة آملًا أن تجد قلة منهم الشجاعة لتعيش حياة جميلة وتشتري مكانًا في عجلة العربة، وتغدو سعيدة بعد ذلك إلى الأبد. وهكذا عكفت على تنظيم هذه الدعاية بأفضل السُّبل التي أعرفها. فوضعت إعلانًا في صفحة كاملة بالصحف المحلية يقول:

شاورما مجانًا
ليمونادة للأطفال
تعالوا، تعالوا إلى المنزل المفتوح
شاهدوا عجلات أوريلي الشهيرة
اقضوا وقتًا ممتعًا
طعام ممتاز
مجانًا

وأرفقت الإعلان بخريطة صغيرة تُبين موقع المنزل بالنسبة لكلٍّ من الطُّرق الثلاثة الرئيسية في المنطقة.

أعددنا، ماري وأنا، لافتات صغيرة لتُعرض في كافة محلات المدن المجاورة. وصنعناها من ورق الكرتون الأسود وسطَّرنا فوقها رسالتنا في حروف حمراء. بل ذهبنا إلى الراديو وقدَّمنا حديثًا عن مشروعنا الإسكاني، ورغم أن المذيع الذي قدَّمنا إلى المستمعين بذل جهوده ليجعل العجلة تبدو كأي مشروع آخر، فإننا عندما قلنا: «إنها تتحرك»، فغر الفنيون الحاضرون أنفسهم أفواههم، ولا بد أنه وضَّح لكل المستمعين أن منازل أوريلي شيء مختلف، وتستحق نظرة في يوم أحد.

ساهمنا جميعًا طوال يومين في إعداد الطعام، وأقمنا الموائد الكبيرة على طول الطريق. واشترينا اللحم من بائع جُملة كبير، وقسَّمته ماري إلى أجزاء قبل أن نُنضج تلالًا منه على

نار أشعلناها في العراء. وكنا ننوي أن نُسخنها في الصباح، بعد أن نأخذها من عربة الثلاجة التي أمدَّنا بها مستر سليد. وأعددنا الليمونادة في أوانٍ ضخمة، كما أعددنا السلاطة وكل شيء. وأحضر لنا مستر سليد أيضًا أكياسًا من البن زنة الواحد عشرة أرطال.

وعندما بزغ فجر الصباح، نهضنا أنا وماري والطفلان بعيون متورمة واندفعنا إلى الموقع لنُعدَّ كل شيء للهجوم المنتظر.

الفصل التاسع

انتظرنا طول اليوم، ومائدتنا ممتلئة، وأدواتها مُعدة، والمنازل الخمسة الرائعة من خلفنا، فضلًا عن شمس ناصعة ويوم دافئ من أيام مارس لحُسن الحظ، لكن أحدًا لم يأتِ، لا أحد على الإطلاق.

كان البعض يقتربون بسياراتهم، لكنهم عندما يُبطئون ويلحظون أنه لا يوجد زائرون غيرهم، يستأنفون المسير وينطلقون مُسرعين، تاركيننا لابتساماتنا، وأيدينا الممدودة، وطعامنا، ومناظرنا الجميلة.

وأخيرًا انهارت ماري، باكية، وكان الطفلان دائخين حزينين، يسألان عن الناس ولماذا لم يأتِ أحد منهم.

تهاوت ماري فوق الأرض، وهي تبكي بحرقة. ولم يكن ثمة ما يمكنني عمله لأرفع من معنوياتها.

واهتز شكلها الرائع بشهقات تقطع الأنفاس، وأخفت وجهها المُعذب.

طفقت تبكي وتبكي. لم يكن بوسعها أن تكُف، أو تشعر بشيء آخر عدا ذلك الحزن الحاد الذي يعلو ثم ينحسر، يعلو ثم ينحسر.

رفضت ماري كل محاولة للحديث؛ لأنه ليس إلا تفاهة في هذه الظروف، ولم تكن حاقدة، كانت حزينة فقط، حُزنًا جسديًّا متشنجًا، وبكاء متواصلًا وشهقات متتابعة.

وفي الظلام أخيرًا، بعد مضي وقت طويل، تمكَّنت من أن أجعلها تكُف لحظة لتصغي إليَّ، وقلت لها: «حسنًا يا ماري، لقد قُضي الأمر على الأقل.»

وهذا هو كل ما كنت أبغيه، على أية حال.

الفصل العاشر

يُقال أن كل دراما يجب أن تقوم على قاعدة «الفصول الثلاثة»، ولهذا فمن المفروض أن أفعل المِثل في قصتي، رغم أن الفصل الثالث، أو الجهد الأساسي، في حالتي، غير موجود. هكذا تسير الأمور في بلادي، لسوء الحظ، فيما يتعلق بكل مَن يحاول أن يصنع خيرًا. إن أول عمل (فصل) من الخير (أو الجمال) يأتي مفاجئًا للبلاد، ويواجه مقاومة ضئيلة. لكنه يلقى تجاهلًا؛ لأنه لا يُطابق ما يحيط به من قبح وتنتظر البلاد العمل العظيم الثاني، ولو حقق فيه صاحبه تَقدمًا ما، فإن ثمرته تبرز إلى الوجود مُحاطةً بالخوف البالغ. ذلك أن الجمال والحق والخير شيء نادر، وهو يُقابَل للوهلة الأولى بالحيرة، وللوهلة الثانية بالخوف. قد تسألونني، ما العمل الثالث؟ الثالث هو المأساة.

في بلادي، خلال القرن العشرين، تُمثل المأساة الفصل الذي لا يتحقق. إنها عملٌ يعجز الرجال العظماء — ذوو الرؤى والتناسب، عن إنجازه — وهذا هو جوهر المأساة في الأمر. وهو بالضبط ما حدث لي، وأريدكم أن تفهموا الأمر ولهذا سأوضحه لكم بعناية شديدة.

كان جهدي الأول موجهًا إلى الحياة العائلية. فقد حاولت أن أجلب الجمال إلى الأفراد من موطني، بأن أُصمم ثلاثة منازل وأقدِّمها لهم كبديل للمساكن الثابتة البليدة القبيحة التي ألقى مواطنيَّ أنفسهم مرغمين على الحياة فيها. كان هذا هو العمل الأول، وكما تعلمون فإن عملي قد رُفض.

وكان جهدي الثاني هو عجلة العربة، حيث قدمت تصميمًا متحركًا يُتيح الفرصة للتعاون والحياة الأفضل ... وبعبارة أخرى، بديلًا متنورًا للمدن الحقيرة المتنافسة الحيوانية التي تُقيد حرية المعاصرين لي. وهذا أيضًا قوبل بالرفض بدافع الخوف. فلم يطابق جمالها القبح الذي ألفه مواطني.

وكان جهدي الثالث ممكنًا لو كانت هناك استجابة للجهدين الأولين. كان يجب أن يرمي إلى إعادة تشكيل بلادي، بعد أن تتحد قدراتي مع الآخرين من أمثالي، ويكون هدفنا هو خلق بنيان يمثِّل المواقف القومية الحرة والأمنية والطيبة التي يعبِّر عنها السكان. لكن ها أنتم ترون، أن الجهدين الأول والثاني قد تحققا في وجه مقاومة من جانب المواقف القومية، لا نتيجة لها، ورغم أني تمكَّنت من الاستمرار بعض الوقت دون استجابةٍ ما، فإني لم أعُد قادرًا الآن على مزيد من الاستمرار. ليس هناك وجود للعمل الثالث، فحكايتي هي المأساة، و«العيب» ليس فيَّ وإنما في حضارتي ومجتمعي. فأنا قادر وراغب، ولكنكم لستم كذلك.

أيها القارئ، هل تعرف ما اليأس؟ هل حدث لك مرة أن عشت برؤيا عظيمة كان من اليسير أن تتحقق لولا المعارضة العمياء بلا ضرورة من جانب الناس أنفسهم الذين سيستفيدون منها؟ إن أغلب الناس لا يعرفون اليأس المخيِّم الذي يشعر به رجل عظيم بسبب انتمائه لمجتمعٍ من الدرجة الثالثة يتشبث بحضارته المشوهة دومًا. إن أغلب الناس يحلمون بما كان يمكن أن يصبحوا، لا بما كان يمكن أن يُخلقوا.

إن اليأس يكون أعظم في العقل العظيم الذي يجد نفسه عاجزًا عن التعبير عن أفكاره في أعمال عظيمة واثبة تحول عالم الإنسان إلى الأفضل، وتجعله أكثر جمالًا، وأكثر عطاءً. وهو يهبط أمام العيون كدرع رمادي، يصدم البصر الذي يمتد إلى بعيد بغياب الأمل، ويذكِّر العقل العظيم المتطلع بعبث الحاضر وكآبته، ويُجيب على نداء الرغبات الجديدة بذكرى المحاولات الفاشلة السابقة، ويغطي كل إيمان بستار شفاف من العقم. إنه يقترح الانتظار، عندما يرغب العقل في الاستمرار، ويتساءل كيف عندما يواجه بأفكار جديدة. إنه شبح يطارد الأحياء، ويسخر من كل محاولة للتحسين، ويوصي بأن الأشياء جميعًا واحدة في كل زمان ولا يمكن تحملها. إنَّ قاطنه الوحيد، وصلاته الدائمة، ودستوره هو: لا فائدة! ليس هناك شيء اسمه النجاح الدائم.

اسأل أي إنسان كافح من أجل الحرية. سيذكر لك أنه تواطأ مع الطغيان، وسواء نجح أو خسر، عاد أو مات؛ فالنهاية واحدة دائمًا، أن الأشرار قصيري النظر بيننا يَصِلون إلى السلطة، بينما يحتجُّ الأخيارُ في سكون، بينهم وبين أنفسهم، على هذا العدوان الصارخ. ويُحلِّق العالم في الفضاء، دون أن يعير اهتمامًا للفوضى الضاربة أطنابها على سطحه الخارجي، وتُواصل الشمس إشراقها، جاهلة متجاهلة، ويبتسم الإله في خبث، أو لا يفعل على الإطلاق.

شعرنا، ماري وأنا، بهذا اليأس بعد مهزلة عجلة العربة. فقد شهدناها تتحول إلى ساحة ملاهٍ بعجلاتها الدوارة وغيرها من أعاجيب اللهو الشنعاء، بعد أن استولى مستر سليد عليها كتعويض جزئي عن ديونه، وعندما انتهى «تجديدها»، أصبحت تمتلئ كل ليلة بالباحثين عن المتعة الذين جاءوا بسياراتهم من شيكاغو، وسرعان ما بدأت تدر مالًا لمالكها الجديد.

الفصل الحادي عشر

لما كنت الآن فقيرًا تمامًا، وعاجزًا عن التعبير عن المواهب الجديدة التي أمتلكها، ولما كنت عدوًّا لمجتمعي الذي يحيط بي، لا أستطيع الانتهاء قبل أن أُوجِّه كلمة للشباب، أستحثهم على التغيير؛ فأنا أحاول، شأن كل الفنانين العظماء في كل العصور، أن أُلقِّن الطبيعة البشرية كي تتجاوز نفسها في المرة التالية، ولا يبدو أبدًا أنها تتلقى الرسالة.

على أية حال، فإن رسالتي تختلف قليلًا، فأنا لا أتجه بحديثي إلا لمن يملكون حِسًّا فنيًّا. أما الباقون فأنا راغب في أن أدعهم لحياة الخنازير التي تبدو أنهم يستمتعون بها للغاية.

إني أومن بأن ميل الشباب ذي الحِس الفني إلى المبالغة في ذوق مواطنيه، هو الذي يجعله سريعًا عاجزًا عن التعبير عن ذوقه الأسمى، وما من سبيل لتجنُّب هذا الموقف إلا بمعاملة الآخرين على أنهم «مادة خام»، مستعدة لكلِّ ما يشاء أن يفعله بها — ولا يعاملهم أبدًا، مطلقًا، على أنهم جمهور ذكي مشارك يستجيب. ليس بوسعي أن أؤكد هذا أكثر من ذلك — أعني المادة الخام، النافرة، العقيمة، الخامدة، المجردة من كل إلهام، المنحطة، التي تعيش حياة الخنازير، ولا تعني شيئًا بمفردها، والتي تميل بالطبيعة إلى النزوات والفوضى، والتي يجب أن يُوجه ذوقها بواسطة كل إنسان حاذق (كما يُروض الراكب الجواد) وهو مَن يعتبر مجرد وجوده بينها معجزة. يجب أن يُرغم الدهماء على أن يفسحوا المجال ليولد بينهم كل ما هو من أعمال الخيال أو شيء صحيح أو شريف أو جميل؛ فكل الأعمال الطيبة تحدث بالرغم من نواياهم الشرهة.

ولدي — أنت يا من ستقوم بأشياء مُلهمة عظيمة — تَطلَّع حولك إلى القبح، والوحشية، المجتمع الحقيقي الذي ستُبدله أنت بغيره، واعترف لنفسك بأن مواطنيك هم الذين صنعوا

كل هذا، القبيح والمشوه والذي يعج بالوحشية، كل هذا تآمر رفاقك أنفسهم على صنعه بوعي، ألقِ نظرةً فاحصة، يا بني، واعرف معاصريك من أعمالهم؛ لأنهم لا يستطيعون أفضلَ منها، وهم ينظرون ويفكرون ويشعرون ويتصرفون في الواقع بهذه الطريقة. إنهم يؤمنون بما هم عليه.

والآن، وقد اكتشفت ما أنت بسبيل مواجهته، احزم أمرك على أن تُعامل كل مواطنيك كما هم — أعداء لك — فتتآمر عليهم وعلى رغباتهم دائمًا، وتلحق الهزيمة بأهدافهم، وتناوئهم. عليك أن تدرك أن العمل الشريف أو الجميل الذي ستقوم به سيكون ضدهم وضد أعمالهم. افعلْ هذا عن عمد، وكن متأهبًا لانتقامهم. لا تنتظر أي عون من رفاقك، أو استجابة، أو تصفيق. لا تنتظر من البشر جميعًا سوى الأكاذيب والقبح والوحشية والعاطفية الجوفاء، ولن يخيب أملك لو فعلت سوى مرة أو مرتين طول حياتك. لا تجعل عينك على الآخرين، انظر فقط داخلك. ولا تسأل أبدًا، أو ترغب، أو تتوق، وأساسًا حاوِل ألا تحتاج إلى شيء؛ لأنك لو احتجت شيئًا، فسوف يحبسونه عنك فرحين بهدف العمل على تدميرك.

أقول لكل مَن يعنيه أمر الجمال أو الحق أو حتى العمل المتقن لا بد وأن تخوض حرب عصابات ضد المجتمع الحديث، أو تتخلى فورًا عن اهتماماتك، فإذا ما انحزت إلى قضية الجمال في مجتمع مُكرَّس لإنتاج القبح بالجملة، أو إذا ذكرت الحقيقة في دولة الطغيان التي لا يمكن أن يحتملها سكانها إلا بعد أن يُزيِّفوا ما يحدث حولهم، أو لو حاولت ببساطة أن تقوم بأي عمل طبقًا لأفضل قدراتك — فسرعان ما يجعلونك طريدًا. وإذن عليك أن تتوقَّع منذ البداية ما ستواجَه به من رفض، واجعل الحربَ التي تخوضها من أجل أن تحيا بشروطك، حربَ كرٍّ وفرٍّ، اضرب ثم اجرِ، حاول أن تعزلهم قبل أن يتمكنوا من تشريدك، وحاول أن تترك بعض أعمال جيدة من خلفك عندما يضطرونك إلى الفرار.

وعلى كلٍّ، فالتاريخ يشهد بأن الأعمال العظيمة الدقيقة التي تركتها قلة من العبقريات تمكنت سلالتنا من إنتاجها، كانت دائمًا استثناءات من العمل العادي للإنسان — ولن يكون عصرنا مختلفًا. فهذا العصر لن يتذكَّره أحد في المستقبل إلا بتلك الأشياء القليلة البارزة التي حاول بكل جهده أن يهزمها ويتجاهلها ويدمرها.

حسنًا، لقد انتهيت، وانتهت رسالتي.

والآن: لتذهبوا جميعًا إلى الجحيم.


هنداوي